الاستشراق في أزمة (*)

د. أنور عبد الملك
ترجمة: د. حسن قبيسي

«لا بدَّ لنا من أن نرى أوروبا من الخارج، أن نرى تاريخ أوروبا، نقائض أوروبا، ونجاحاتها، من خلال أعين ذلك الجزء الواسع من البشرية الذي يتكوَّن من شعوب آسيا وافريقيا».

جوزف نيدهام

من أجل نسف ذلك «الستار الحديدي من الأحاجي المغلوطة» الذي يتحدَّث عنه «كلود رُويْ» لا بدّ لنا بصورة ملحَّة من أن نشرع بإعادة نظر وتقييم نقديّين للتصوُّر العام، وللمناهج والأدوات التي استعملها الغرب في معرفته للشرق، لا سيّما منذ أوائل القرن الأخير، على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات. هذا أمر حاسم، بالنسبة لكل علم متماسك يطمح لأن يكون تمثُّلاً ذهنياً. رغم ذلك، فقد كان من الواجب أن تنهض أمم وشعوب آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية، منذ جيلين لكي تولِّد هذا الوعي المتأخر والمتردِّد في كثير من الأحيان، والذي أصبح ضرورة عملية لا محيص عنها، بعد أن كان شرطاً مبدئياً. وذلك بالضبط بتأثير ـ قاطع ـ من العامل السياسي، أي بتأثير انتصارات مختلف حركات التحرر القومي على صعيد الأرض. في هذه الآونة، تعتمل الأزمة في صميم الاستشراق: منذ (١٩٤٥)، لم يعد «الحقل» هو الذي يستعصي عليه وحسب، بل «البشر» أيضاً، البشر الذين كانوا بالأمس «موضوعاً» للدرس، وأصبحوا اليوم «ذواتاً» أسياداً. ثم إن مجال علوم الانسان والمجتمع، قد بدا هو الآخر يعاني من الحاجة إلى قهر جديد، إلى انبساط وامتداد، إلى تحوُّل لا يطال الحقل وحده. لكنهم لا يرون في ذلك، في هذه الآونة على الأقل، أزمة معيَّنة، إذ إن هناك عوامل عدة وخاصة

(*) انور عبد الملك، «الجدلية الاجتماعية»، باريس، ١٩٧١، ص. ٧٩ - ١١٣.
- A. Abdelmalik, «La Dialectique Sociale», Paris, Le Seuil, 1971, 79-113.
وقد نشرت الدراسة أولاً في مجلة Diogène العدد ١٩٦٣/٤٤.

الدور المتعاظم الذي تضطلع به المنهجية الماركسية، الشمولية والتأريخية، فضلاً عن المناهج التي تتصل بها من قريب أو بعيد أي مناهج العلم والعقلانية الحديثة، مما يتيح ضرباً من المرونة والتوفيق أشد فعلاً ووقعاً، رغم النقص الشديد الذي يَعتورهُما.

لننظر عن كثب. دراستنا تتناول بالطبع العالم العربي، لا سيَّما مصر، لكنها تتطرَّق أيضاً إلى قطاع الصين وجنوب شرق آسيا بصورة ملحقة.

حول تاريخ الاستشراق التقليدي ـ منذ تأسيسه الذي أُقر في مجمع ڤيينا عام (١٩٤٥)، مروراً بأولى منابر اللغات الشرقية في جامعة باريس، حتى حرب (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، توجد مؤلفات كثيرة ومواد متفرقة يمتناول الباحثين؛ وهي، على غناها بالأفكار، نادراً ما تتصف بالتماسك والدقة[١]. غير أنه من المفيد أن نشير إلى أن الازدهار الحقيقي للدراسات الشرقية في القطاعين الرئيسيين اللذين هما، العالم العربي والشرق الاقصى؛ يعود تاريخه، بالدرجة الأولى، إلى عصر التمركز الاستعماري، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوروبية على «القارات المنسية» (في أواسط القرن التاسع عشر، ثم في ثلثه الأخير): فكانت الموجة الأولى تتصف بإيجاد الجمعيات الاستشراقية (باتافيا ١٧٨١، **الجمعية الملكية الآسيوية**، لندن ١٨٣٤) ثم **الجمعية الآسيوية** (باريس ١٨٢٢، **والجمعية الأميركية الشرقية** ١٨٤٢، ... إلخ.). أمَّا المرحلة الثانية، فشهدت ظهور مؤتمرات المستشرقين، التي انعقد أوُلها في باريس عام (١٨٧٣). وكان عدد المؤتمرات التي عقدت حتى حرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ستة عشر مؤتمراً (آخرها في ڤيينا عام ١٩١٢). ولم ينعقد منذ ذلك الحين إلاَّ أربعة مؤتمرات...

ماذا كانت تدرس تلك المؤتمرات بالضبط؟

هذا المستشرق ـ «العالم المتضلع من معرفة الشرق ولغاته وآدابه... إلخ.»[٢] ـ أيُّ نوع من البشر هو؟ أي نوع من العلماء؟ ما هي الدوافع التي تحدو به؟ بماذا يهتم؟ ما هي الأهداف التي يطمح لبلوغها؟ ينظر «**مايكلنجلو غويدي**» (١٨٨٦ ـ ١٩٤٦)، إلى المسألة من منظار فلسفةٍ للتاريخ مناقض لمنظار الشعوب الدائرة في فلك الهلِّينية، هذا المنظار الذي يتبناه «ڤرنر جيجر»[٣] بشكل خاص: «إنني أعني بالمستشرقين هنا، أولئك الذين يدرسون الشرق الأدنى. إذ إن فكر الهند والصين هو بالتأكيد فكر ذو أهمية رئيسية لمعرفة سبل الذهن... لكنه ليس على أية صلة حيوية **بنا**». «أمَّا نحن المستشرقون، فالواقع أننا ننظر باتجاه الثقافات التي يظهر فيها العنصر الشرقي بأتم تعبيره، أي باتجاه الثقافات القومية الصافية، باتجاه الاسلام مثلاً، لا فقط من أجل إعادة خلق عالم أجنبي ـ يتمتع على كل حال بقدر كبير من القيمة والكفاءة العلمية ـ بل (أيضاً) لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من أن نفهم كل الفهم طبيعة العناصر التي كوَّنت ذلك الانصهار الرائع الخصب الذي حصل

في **المنطقة الثقافية للهلّينية**»[٤] . « على المستشرق، إذا شاء أن يستوفي شروط الاستشراق، أن ينطلق من العالم الكلاسيكي . لكنه يقع في موقف معاد للتاريخ، إذا صرف ناظريه عن حقبة بكاملها تقع بيننا وبين الكلاسيكية الصافية . فالانسان الكلاسيكي (أومو كلاسيكوس) والانسان المستشرق (أومو أورينتليس)، يصبح في وقت من الأوقات ضرباً من الذكرى أو التجريد» . الانسان المجدّد (أومو نوڤوس) للهلّينية هو وحده «الحي»، وذلك بوصفه نتاجاً «لحركات حيَّة لا لحركات تصطنع اصطناعاً من قبل العلماء . فكلها كانت من نتاج قوة تاريخية أصيلة» . من هنا «فنحن لا ندرس هذه العوالم لكي نصنّف سلسلة جديدة من الظاهرات في واجهة المتحف البشري، أو لكي نصف أشكالاً غريبة وعجيبة . بل ندرس هذه العوالم لكي نحيي مراحل الاتحاد الوثيق بين تراثين مختلفين، بأن نسعى إلى تمييز أنماط ووظائف واحد منها بعينين صار نظرهما ثاقباً بفعل تأمل ظاهرات الثقافة الشرقية في أتمّ تعابيرها، مع إمكانية الإدلاء بتقييم أصح، وبحساسية أشدّ»[٥] . . . إلخ . هل نبالغ إذا تحدثنا هنا، عن رومانسية «المحورية الاروبية»[٦]، التي تحثّ على التقصّي العلمي، بينما نجد عند أمثال «ريمون شواب» موضوعات مماثلة[٧]، وإن تكن الصورة التي قدمها لنا هذا الأخير لستة مستشرقين انكليز: (س اولكي، ف . جوش، أ . بالمر، أ . براون، ر . نيكلسون، وأ . اربري) تسير، من حيث الجوهر، في نفس الاتجاه . ولكي ينبغي أن نرى جيداً أننا ما زلنا ـ تاريخياً ـ في عصر الهيمنة الاوروبية . وأن على النقد الذي يتناول الماضي أن يأخذ هذه النقطة بعين الاعتبار .

نشأت عن هذا التيار الفكري، عن هذه الرؤية للاستشراق، المؤلفات الرئيسية لأهم المدارس الاستشراقية في الغرب (فرنسا، بريطانيا، المانيا، هولندا، اسبانيا، ايطاليا، روسيا، الولايات المتحدة)؛ وكانت مساهمتها متعددة وخصبة . ويميز خبير المكتبات اللبناني **يوسف أسعد داغر** بين ثمانية عناصر إيجابية في الدراسات العربية الاسلامية: دراسات الحضارات القديمة، تجميع المخطوطات العربية في المكتبات الاوروبية، إنشاء لوائح بالمخطوطات، نشر مؤلفات عديدة مهمة، إلقاء درس منهجي ـ بهذه الطريقة ـ على العلماء الشرقيين، تنظيم مؤتمرات للاستشراق، كتابة بعض الدراسات ـ التي كثيراً ما تكون ناقصة ومغلوطة من الناحية اللغوية، لكنها متماسكة ودقيقة من حيث المنهج ـ وأخيراً «فقد ساهمت هذه الحركة في تنبيه الوعي القومي في مختلف بلدان الشرق، وفي تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة الفكرية»[٩] . سوف نرى ماذا يعني ذلك، بعد قليل .

غير أن هذه الرؤية للاستشراق التقليدي لم تكن الرؤية السائدة . أو أنها شكلت بالأحرى، القسم الجوهري من العمل الذي تمّ داخل الجامعات والجمعيات العليمة بالأمر، دون أن تحيط بكل جوانب العمل الذي أنجز ونشر في هذا الإطار وغيره، هذا من جهة؛ أمّا من الجهة الاخرى، فإن هذا العمل نفسه كان مشبعاً إلى حد بعيد جداً بالمسلّمات وبالعادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية ـ الفلسفية التي كان لها أن تحبط، في كثير من الأحيان، نتائج

الأعمال الدؤوبة وقيمتها العلمية، وأن تؤول، من الناحية الموضوعية، بعدد كبير من العلماء المستشرقين الأقحاح إلى المواقع الفلسفية ـ السياسية التي يحتلها الفريق الآخر من العاملين.

كان هذا الفريق الثاني مؤلفاً من خليط من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والموظفين الاستعماريين والمبشرين والصحفيين والمغامرين، الذين كان هدفهم يقتصر على التعرُّف إلى الحقل المزمع احتلاله، والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انصياعها للقوى الاوروبية على نحوٍ أفضل. «إن زاوية النظر التي اعتمدها المكتب العربي» كما يقول **جاك بيرك** بحق، قد جعلت «دراسة مجتمعات شمال افريقيا موجهة منذ البداية، علماً أنها كانت تُدعم وتُزوَّد بما تحتاج اليه، في نفس الوقت الذي يُعمل فيه على الحد من نشاطها»[١٠]. يستطيع المرء أن يحزر بأيِّ اتجاه كانت تُوَجَّه... والظاهرة عامة، لأنها عنصر تكويني من عناصر العلم الاجتماعي للبلدان الاوروبية في زمن الاقتحام والتمركز الامبرياليَّيْن: الاستشراق الايطالي في عهد موسوليني، الاقتحام النفساني ـ السياسي الذي يشهد عليه «ت. لورنس» ومدرسته؛ وقبل ذلك، التقارير المتبادلة بين المبشِّرين، والأوساط التجارية والمستشرقين (التي يشهد عليها بشكل خاص المؤتمر الاقليمي الثالث للمستشرقين في ليون، ١٨٧٨)... إلخ؛ والأمثلة كثيرة، بل غزيرة، ذلك أننا لا نزال في عصر الذل، في عصر الاحتلال، قبل الثورات التحررية الكبرى[١١].

إلاَّ أنه، هل يسعنا أن نتحدَّث، رغم هذه الفوارق الفعلية، عن نوع من التشابه في الشعور العام والمناهج والادوات المستعملة من قبل هذين الفريقين من المستشرقين التقليديين؟

نجيب بالإيجاب: فوحدة المصلحة، لا المصالح فقط، أساسية تجاه الآخر، تجاه هذا العالم الذي سيُسمَّى فيما بعد «ثالثاً» بالنسبة للتاريخ الذي يصنع نفسه.

□ **التصوُّر العام**، أي رؤية الشرق والشرقيين من قبل الاستشراق التقليدي:

١ ـ على صعيد **طرح المشكلة**، صعيد **المُشْكَلَة**، يعتبر الفريقان أن الشرق والشرقيين «موضوع» للدراسة، مرسومٌ بالغيرية ـ شأنه شأن كل ما هو آخر، سواء كان «ذاتاً»، أم «موضوعاً» ـ لكنه مرسوم بغيريَّة تكوينية، ذي طابع جوهري، كما سنرى على الفور. «موضوع» الدراسة هذا يوصف، كما يليق به، بأنه سلبي، لا يساهم في الأمور، ممهور بذاتية «تاريخية»، فضلاً عن أنه فوق كل ذلك، معدوم النشاط، معدوم الاستقلال، معدوم السيادة تجاه نفسه: الشرق أو الشرقي الوحيد، أو «الذات» الوحيدة، التي يمكن التسليم بها، في النهاية القصوى، هو الكائن المستلب، المؤلَّيْن، بالمعنى الفلسفي، أي الذي إذا قيس بالنسبة إلى ذاته كان أمراً آخر غير هذه الذات. إنه الكائن المطروح والمفهوم والمحدد ـ والمفعول به ـ من قبل الغير.

٢ ـ على صعيد **الموضعة**، يتبنَّى الفريقان تصوُّراً جوهرياً لبلدان الشرق المدروس وأممه وشعوبه، وهو شعور يتجلَّى عبر نُميطة إثنية (عرقية) موصوفة. ولم يلبث الفريق الثاني أن حوَّل هذه الإثنية إلى عنصرية.

فالمستشرقون التقليديون يرون أن هناك جوهراً ـ يوصف أحياناً بوضوح وبتعابير ميتافيزيقية ـ يتكوَّن منه الكنه الثابت المشترك لدى جميع الكائنات المعنية. ثم إن هذا الجوهر يوصف في آن معاً بأنه «تاريخي»، لأنه يعود إلى التاريخ السحيق، وبأنه لا تاريخي، لأنه يجمِّد الكائن ـ «موضوع» الدراسة ـ في خصوصيته الثابتة التي لا تخضع للتطور والتحول، عوضا عن أن يجعل منه ـ كسائر الكائنات الأخرى، من دول وأمم وشعوب وثقافات ـ نتاجاً أو حصيلة لمنحى القوى الفاعلة في مجرى التطوُّر التاريخي.

فيفضي الأمر هكذا إلى نمطية مبنيَّة على خصوصية فعلية، لكنها منزوعة من التاريخ؛ ـ وبالتالي، فهي تعتبر بمثابة الكائن المعطى الذي لا يُمسّ ولا يُقرب ـ تجعل من «الموضوع» المدروس كائناً آخر تكون الذات الدارسة بالنسبة إليه ذاتاً مفارقة متعالية: وهكذا يكون لدينا «إنسان صيني، وإنسان عربي (أومو صينيكوس، أومو أرابيكوس) بل وإنسان مصري، وإنسان افريقي (أومو إيجيبتيكوس، وأومو أفريكانوس)[١٢]، ولم لا. إذ إن الانسان ـ «الانسان السوي» طبعاً ـ هو الانسان الأوروبي الذي عاش في العصر التاريخي، أي منذ العصور اليونانية القديمة. وهكذا يرى المرء إلى أيِّ حدٍّ كان الارتباط وثيقاً ـ من القرن الثامن عشر حتى العشرين ـ بين سلطوية الأقليات المالكة التي فضحها «ماركس» و«انجلز»، والمحورية البشرية التي نسفها «فرويد»، وبين المحورية الأوروبية، في ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية، لا سيما تلك التي تتصل اتصالاً مباشراً بالشعوب غير الأوروبية.

ولا نجد بين أساتذة الاستشراق التقليدي من يعبِّر عن هذه الموضوعة، خيراً من العالم الكبير «لويس **ماسينيون**» (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) عندما يتحدث عن العرب الاعزَّاء على قلبه الصوفي. ففي المقالات التي كتبها قبل وفاته بفترة قصيرة، يتحدَّث «ماسينيون» عن هذه الموضوعة كما يلي: «بالنسبة لمشكلة المستقبل العربي، اعتقد أنه ينبغي طرحها من ضمن السامية. أعتقد أن في صلب الصعوبات لدى العرب، هناك هذه الصعوبة الدرامية. هذا الكره القاتل الذي يعتمل لدى الأخوين اسرائيل واسماعيل. واعتقد أنه ينبغي تخطّي هذه الصعوبة. فهل يسعنا الوصول إلى تخطيها؟ اعتقد أنه من الواجب أن لا نغالي في طرحها من الزاوية الدرامية التي تركّز على التأثير الآلي للتكنوقراطية الراهنة والتي تمكّن اسرائيل، إجمالاً، من شد خيوط العالم بأسره. إذ إنه نظراً لتفوُّقها الفكري ونظراً لتقنيتها في بناء المشكلات ـ لأن اسرائيل لم تنفك يوماً عن طرح المشكلات على نفسها، فهذه قوة الرجاء بالنسبة إليها، وهي التأمل الذهني في حالته الصرف ـ يجد العرب أنفسهم حيال المطالبة بأن تكون الساميّة وقفاً على الاسرائيليين بوصفهم ساميين يمنيين، ذوي امتيازات. أمَّا هم، فإنهم بالعكس

خارجون على القانون ومستبعدون. ولأسباب عدة، وجدوا أنفسهم أعجز من أن يقوموا بالمهمة التي عرفت اسرائيل كيف تضطلع بها. ولكنني أرى أن على الأشقاء أن يجدوا سبيلاً للمصالحة. إذ إن كلا الفريقين، اسرائيل والعرب، يملكان شهادة داخلية للادلاء بها: إنها شهادة لغتهما التي هي لغة مقدسة، فضلاً عن أنها أداة بحث علمي مجرد. لقد كتبت النخبة اليهودية وفكّرت باللغة العربية خلال العصور الوسطى بكاملها. هنا تكمن المشكلة الجوهرية»[١٣].

إن هذا الشعور النبيل لا يسعه أن يخفي عن الأذهان طبيعة هذه الموضعة، وهي طبيعة باطلة من أساسها وحافلة بالمضاعفات المؤذية.

□ **مناهج الدراسة والبحث** وهما يتحددان، لا محالة، بموجب الشعور العام:

١ ـ إن ماضي الأمم والثقافات الشرقية يشكّل، بالطبع، حقل الدراسات الممتاز[١٤]: «فعندما يُصار إلى التسليم ضمنياً بأن أزهى الفترات التي عرفتها بلدان الشرق تنتمي إلى الماضي» يصار إلى التسليم من هنا بالذات، «إن انحطاطها أمرٌ لا مفرَّ منه». ويلاحظ «جان شينو» بحق، «أن السبيل الذي اتبعته الدراسات اليونانية ـ اللاتينية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم انبعاثها بوصفها دراسات لحضارات «ميّتة»، انقطعت صلاتها تماماً مع ورثتها المعاصرين، كانا يوفران للمستشرقين نموذجاً بارزاً»[١٥]

٢ ـ ويدرس هذا الماضي نفسه، من حيث أوجهه الثقافية ـ لا سيما اللغة والدين ـ المعزولة عن التطوُّر الاجتماعي. وإذا كانت الهجمة العامة التي شنّتها اللاعقلانية بعد هيجل وضده في أوروبا، تفسر التشديد على الظاهرة الدينية، بل على **هالتها** شبه النفسية الباطنية، فإن انبعاث دراسات العصور القديمة، في نهاية القرن الماضي، على ضوء المنهج التاريخي ـ لا سيما فقه اللغة التاريخي ـ هو الذي يفسر الأولوية التي أولاها المستشرقون التقليديون للدراسات الألسنية واللغوية، لكن دراسة اللغات الشرقية **الحية** ـ كالعربية مثلاً ـ بوصفها لغات ميّتة، قد ولّد عدداً كبيراً من الأخطاء والتفسيرات المقلوبة والمغالطات، كمن يحاول أن يقدّم شرحاً للغة الفرنسية (لغة «مارتن دو غارد» و «سارتر» و «اراغون») انطلاقاً من مجرد معرفته بكتاب «أناشيد الإيماء»، أو أن يقدّم تغليقاً على انكليزية «شاو» أو «راسل» انطلاقاً من الساكسونية، أو نقداً لايطالية «كروس» و «غرامشي» و «مورافيا» انطلاقاً من لاتينية الكنيسة[١٦].

٣ ـ وبعد أن يُدرس التاريخ بوصفه «بنية»، يُعكس في أفضل الحالات على الحاضر القريب. فيبدو هذا الحاضر بمثابة امتداد للماضي الذي كان متألقاً وانطفأ. وهكذا، بدلاً من أن يكون التاريخ تأريخياً، يصبح أمراً غريباً مثيراً للاستهجان.

٤ ـ أمَّا العمل العلمي الذي قام به علماء مختلف البلدان الشرقية، فلا يُنبس حوله ببنت شفة، بل يتجاهل في معظم الأحيان تجاهلاً تاماً إلاَّ في ما ندر من الأعمال التي تسير باتجاه استشراق المراكز اللغوية. أمَّا الباقي فيوصف بأنه لا قيمة له ويُغمط حقه، بينما يصبح التأخر المعزوُّ للشروط التاريخية، لا سيما الاستعمار، خاصة من الخصائص المميِّزة والمكونة للذهنيات الشرقية.

□ **أدوات الدراسة والبحث:**

١ ـ تتكون هذه الأدوات، بالدرجة الأولى، عبر تراكم وتركُّز الثروات العائدة لبلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية في المدن الاوروبية الكبرى: فتاريخ متحفي « غيمه Guimet » و« سرنوشي Cernuschi » في باريس، وتاريخ المجموعات الكبيرة في المتحف البريطاني، مثلاً، يسيران على نفس الخط، الذي هو خط هجرة الكنوز والأدمغة العلمية من أوروبا باتجاه الولايات المتحدة، منذ عام (١٩١٩)، (سواء تمَّت هذه الهجرة تحت وطأة الإغراء أم تحت وطأة القوة). أمَّا بالنسبة للدراسات العربية على وجه الخصوص، فالوضع فريد في خطورته: عشرات الالاف من المخطوطات (وهناك من يقول إن عددها ١٤٠,٠٠٠) توجد خارج العالم العربي، أي ـ من الناحية العلمية ـ بمنأى عن متناول الباحثين العرب أنفسهم. من هنا، إن على هؤلاء الباحثين أن يعملوا، في معظم الأحيان، على مصادر غير مباشرة تعالج صلب التاريخ القومي والثقافي الذي هو تاريخهم. وقد عملت عصبة الأمم المتحدة ـ إلى جانب دول عدة، لا سيما مصر ـ على إنشاء هيئات وإصدار مطبوعات ووضع مشاريع تستهدف إعادة هذه المصادر الفريدة إلى العالم العربي[١٧].

٢ ـ أمَّا بالنسبة للتاريخ الحديث والمعاصر، فإن الجزء الأكبر، بل الجوهري، من المواد التي تتعلَّق بالبلدان المستعْمَرَة والتابعة (لا سيما الهند ومصر والشرق الأدنى العربي والمغرب وافريقيا السوداء... إلخ.)، والتي توجد في أراشيف الدولة لدى القوى الاستعمارية السابقة الكبرى، فيستحيل الوصول إليها في معظم الأحيان، نظراً لمختلف أنواع الحظر والمنع التي تُحاط بها (وأقلها شراً قاعدة السنوات الخمسين الشهيرة). وهكذا تتطاول المعرفة التقريبية بالماضي، وتمتدّ حتى تصبح استقصاءً أو بحثاً عن الذات تعتورُه الثغرات المحفوفة بالمخاطر.

٣ ـ والمصادر الثانوية المستعملة من قبل المستشرقين الغربيين التقليديين ـ تقارير الادارات الاستعمارية[١٨]، والبعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية[١٩]، احصاءات وتقارير مجالس إدارة الشركات، أخبار الرحلات... إلخ. ـ فهي مصبوغة صبغاً شديداً بكل منوعات العرقية والعنصرية. ويتصف أكثرها اعتدالاً بالغرابة وبالمنحى الأبوي. هكذا يدرك المرء أن هذه المصادر الثانوية، رغم تقديمها لعدد من المعطيات الأخرى، ولا تصلح بأي حال من الأحوال لدعم عمل يتوخَّى البحث العلمي.

هذه هي الخصائص الرئيسية للاستشراق التقليدي، الذي مثّل مجمل المنحى الاستشراقي حتى نهاية حرب (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، والذي ما زال يحتل مركزاً مرموقاً حتى أيامنا هذه.

بيد ان نهضة الأمم والشعوب في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، منذ أواخر القرن التاسع عشر، وتسارع عملية النهضة هذه تسارعاً شديداً بفعل الانتصارات التي حققتها حركات التحرر القومي في العالم المستعمر سابقاً، بالإضافة إلى ظهور مجموعة من الدول الاشتراكية وما نشأ عن ذلك من تمايز بين «الاوروبيتين»[٢٠]، قد جاءت جميعاً لتطيح بالبناء الاستشراقي من أسسه. وللحال، أخذ الاختصاصيون، فضلاً عن العامة، يعون التفاوت، لا بين العلم الاستشراقي والمادة موضوع الدراسة وحسب، بل أخذوا يعون التفاوت أيضاً ـ وسيتبين لنا أن هذا أمر حاسم ـ، بين مفاهيم العلوم الانسانية والاجتماعية ومناهجها وأدوات عملها وبين تلك التي يستخدمها الاستشراق.

هكذا استُبعد الاستشراق التقليدي من قِبَل تاريخ الشرق ونهضته القومية، وأصبح مقطوعاً عن الواقع قياساً على تقدُّم البحث العلمي. فصار من اللازم بعد اليوم، أن يُعاد النظر فيه جملةً وتفصيلاً.

وجهان للاستشراق الجديد: «أوروبيّان اثنان» يعيدان النظر في مجمل الاستشراق: **أوروبا القوى الاستعمارية (وأميركا الأوروبية)، وأوروبا الدول والحركات الاشتراكية** التي ما لبثت أن رفدتها ثورات «القارات الثلاث المنسيّة»، من جمهورية الصين الشعبية إلى كوبا.

□ الاستشراق الجديد في أوروبا الغربية:

هناك وثيقتان أساسيتان ـ الدرس الافتتاحي الذي ألقاه «جاك بيرك» في «الكوليج دو فرانس (كانون الاول/ديسمبر ١٩٥٦)، والتقرير الذي وضعه «هايتر» (١٩٦١) ـ فضلاً عن أعمال منهجية عديدة، أتاحت المجال لتحليل هذا التجديد في الاستشراق التقليدي لدى القوى الغربية الاستعمارية.

□ ١ ـ التصوُّر العام: يلاحظ **«جاك بيرك»** أن «شخصية العالم (الاسلامي) تبدو قليلة الانفتاح على الغير. فهو يستثير عند من يخالطه صورة «الكهف» أو «المتاهة»...، ويمتنع على الخارج، على صاحب البدعة. وهو مداور، متوعد أو فتّان، يروغ منك بالسر الغامض أو بالمسبّة أو بالإغراء. إنه يماحكك فلا يدعك تصل إليه وصولاً فعلياً، ويخفي حقيقته عنك. وهناك الكثيرون ممن يتوقفون عند هذا الحاجز الأول، فيؤخَذون بملاطفة الواقع الأخاذ، أو يقعون في فخ اللبس والإبهام، أو ينطلي عليهم ما تتزيَّا به الحركة من زي قتالي. لكن على البحث أن يتقدَّم أشواطاً تتخطّى هذه الأمور... ينبغي أن نجعل أنفسنا متيقظين وحساسين، أكثر فأكثر، تجاه

القفا العربي للأمور». والجهد المبذول من قبل «بيرك»، والذي يقدِّم لنا درسه هذا جردة أولى به، يدفعه إلى الاعتقاد «أن البلدان العربية قد تفتحت على تاريخها الحديث بعد الحرب الأولى، بل حتى بعد الثانية» وينشأ عن ذلك، كما يرى، «عصور من المراجعات المأساوية». غير أنه يقول «إن علينا أن نتعرَّف، خلف هذه الايماءات والحركات الكثيرة، إلى الشهادة، إلى البيّنة، هذه الكلمة العزيزة على لويس ماسينيون». فالبلبة تنتشر في كل مكان: «والتوتر يحوِّر أشكالهم. والبنى تصبح هَرُوبةً، كما تصبح تحديداتها غامضة وملتبسة. والعاطفة تطغى عندهم دائماً على الواقع الملموس، والرمز على الفعل. كل ظاهرة تتراتب عندهم وفقاً لمستويات عديدة، وكل سلوك ينبغي أن يُفهم على أكثر من صعيد. من هنا صعوبات التعبير القصوى بالنسبة لهم، وصعوبات التفسير بالنسبة لنا». ومن الطبيعي أن تكون «هذه البنى مستعصية على الأفهام إذا ما عزلت عن سياقها التاريخي، وعن نفسية اجتماعية بكاملها». لكن ذلك لا يحول دون إصدار الحكم القاطع بحقها[٢١]: «فبلبلة الأفكار الواسعة التي نشأت... كانت تقرن بنية الوجود ـ السببياتْ، صحيحة كانت أم خاطئة ـ قرناً غامضاً بحاجات الفؤاد وباتساع الحركة الإيمائية». كل المحاولات «تستجيب قبل كل شيء، على ما يبدو لي، للبحث عن صلابة ما، وكثيراً ما يفتقد البحث للمهارة، ويتصف بالعمومية والتحريف. وهو يفتقد أحياناً لصدق الطوية: فليكن من حق صديق (للعرب) أن يقول ذلك على الأقل. إنه بحث يفتقد للحذاقة: متسرِّعٌ في معظم الأحيان. هكذا، فإن تحليل الأشكال السياسية القائمة حالياً، في الشرق، لا يفضي إلى مدى بعيد». ويذكِّر «بيرك» بـ «رينان»[٢٢] مراراً، ويقول: «إن هذا التاريخ ليس تاريخاً مستقلاً... حتى الآن، ما زالت هذه المجموعة البشرية تمتنع عن ما سُمّي بـ «تكوين الرأي بصدد الأمور». إذ إن التاريخ ينازعها على طعم هذه الأمور وعلى تماسكها... ولكن لما كانوا منهكين تحت وطأة ما سمَّاه أحد الكتاب المصريّين بـ «عبء تاريخهم»، فقد سعوا للبحث عن تأكيد ذواتهم خارج الاستمرارية، خارج المنطق، بل ربما خارج التاريخ... والحال، هل يمكن للمرء أن يصارع الوقائع برموز، حتى لو كانت بمثل عظمة رمز الحرية؟».

بعد أن أبرز «بيرك» محصلة عدم الاستقلالية هذه ـ أي عجز الشعوب العربية والاسلامية عن تفكير ذاتها بذاتها وعن شحذ أدواتها المعرفية القادرة، وحدها، على تأسيس الفعل والتقدُّم ـ يعمد بالطبع إلى تلافي هذا النقص، لا سيّما في كتابه «العرب من الأمس إلى الغد» الذي ظهر عام (١٩٦٠): «فالنفس العربية تحتفظ اليوم، أو أنها تبعث من جديد مرجعاً ذاتياً لها، استقلالية في الإحساس والتعبير، لم يكن يُفترض بأي سستام خارجي، مهما بلغت قدرته على الإغناء، أن ينازعها إيَّاه، فهل كان في ذلك سبب كاف يحدو بالباحث الأجنبي إلى الامتناع عن الادلاء بنظريته نظراً لكونه مشبوهاً منذ الوهلة الأولى، ومضطراً لاتخاذ آلاف أصناف الاحتراس حتى لا يجرح بعض الحساسيات المفرطة؟ على العكس، فالفائدة التي تنشأ عن مساهمته من شأنها أن

تعزّز العفوية التي استردَّها العرب. فإذا كنتُ قد تجرأت على أن أعرض عليهم سستاماً لتاريخهم المعاصر، فإنما فعلت ذلك أملاً مني بإخضاعه لحكم هذا التاريخ إياه، فكلما أثار هذا السّستام انتقادات من الداخل، كلما كان من شأنه أن يعمل على تقدُّم الذين يطمح لخدمتهم، وإذا كان يشكو على الأرجح، من كونه صادراً رغم كل شيء عن شخص أجنبي، فعزاؤه بالمقابل، أنه قادر على الانساحاب. وحظوظه من النجاح أو الفشل ليست في نهاية المطاف، سوى حظوظ هذا الاستشراق الجديد الذي يتّصف بالتجرُّد والالتزام في آن واحد»[٢٣]. غير أن ردود الفعل التي أثارتها رؤية النتاج على هذا النحو، قد ولدت بعد عامين تصحيحاً معيناً لمسارها: «لقد أشار أحد الكتاب المصريين، بصدد كتابي الأخير، إلى أنني أتوجَّه إلى القارىء الشرقي بمقدار ما أتوجه إلى القارىء الغربي. ورأى فيه حدثاً جديداً! فهل بالغ هذا الحدث الجديد في طموحاته؟ إن الدراسة المذكورة، إذا اعتُبرت من هذه الزاوية تطلَّب من موضوعها أن يتحوّل إلى مُحاور ناقد ومساهم»[٢٤]؛ وأداة هذا الاستقصاء هي الثقافة الفرنسية، «إذ إن الفرنسية، وأنا لا أرعوي اليوم عن المهاجرة بذلك، تظل هلّينية الشعوب العربية»[٢٥].

إن كتابَيْ المؤلف ـ حول العرب، ثم حول المغرب ـ يضعان جدولاً بهذه النمطية الجديدة. ولمّا كنا نهتم، هنا، بالمنهجية، فنحن لا يسعنا أن ندقّق في مسلماتها واطروحاتها، ولا بنتائجها، غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن النمطية الجديدة، رغم بقائها جوهرية من حيث نواتها المركزية، تمتاز بأنها تأخذ العامل الاقتصادي بعين الاعتبار.[٢٦]

أمّا طرح المشكلة في العالم الانكلو ـ ساكسوني فمختلف. في عام (١٩٤٦) أُسّسَ «معهد الشرق الأوسط» في واشنطن، وما لبث أن أُتبع عام (١٩٤٩) بـ «مجلس الشؤون الشرق أوسطية» في نيويورك. في عام (١٩٤٧) عمدت لجنة «سكاربورغ Scarborough»، بناء على مشورة من **«أ. أربري»** إلى الشروع بتجديد الاستشراق في بريطانيا: إذ كانت نهاية الحرب تُملي الاضطلاع «بالمسؤوليات التي تظل ملقاة على عاتقنا في المستعمرات، وبعلاقاتنا مع دول الدومينيون، وهي دول قريبة من شعوب آسيا وافريقيا، فضلاً عن علاقاتنا الجديدة بالهند وبرمانيا وسيلان». ويوجه التقرير نقداً صريحاً لـ «المحورية الاوروبية»، ويشير إلى أن تأخر الدراسات الشرقية في بريطانيا العظمى، قياساً على فرنسا والمانيا وايطاليا وهولندا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، «لا يتفق كما يجب مع وضعنا كقوة عظمى، ولا يتلاءم مع مسؤولياتنا الامبراطورية». فينبغي تنظيم دراسات حديثة لمساعدة العلميِّين بشكل خاص، من أطباء ومهندسين واقتصاديين، ممن يرغبون في تكريس جهدهم للشرق، ويودون الارتباط به ارتباطاً صحيحاً[٢٧].

بعد أربع سنوات، جاء رد فعل لجنة «هايتر» رداً عنيفاً وسياسياً يندد بوضع ما زال مخيِّباً للآمال. **بما أن** مركز الثقل في العالم قد انتقل من أوروبا، فإن الأهمية الراهنة لا ينبغي أن تُعوّل على علماء اللغة، **بل على**

« فائض من المؤرخين والحقوقيين، والاقتصاديين والاختصاصيين الآخرين في العلوم الاجتماعية ». أمَّا أهم الأهداف المنشودة فهي التالية:

« أن يتوفر للأمة احتياطي أعظم مما هو متوفر لها الآن، وأشدّ توازناً، من جهة الباحثين ومن جهة المواد المنشورة حول هذه البلدان »؛

« أن يُصار إلى المساهمة في تشكيل هيئة تتولّى المواد المنشورة حول هذه البلدان؛

« أن يُصار إلى تشجيع الاهتمام باللغات الشرقية تشجيعاً غير مباشر »؛

وأخيراً « أن يُصار إلى رفع نسبة الدراسات الحديثة ونسبة دراسة اللغات الحديثة قياساً على الدراسات الكلاسيكية »[٢٨].

وتحلل اللجنة الجهد المبذول من قِبَل الولايات المتحدة، التي كانت تأتي في المرتبة الأخيرة أيام لجنة « سكاربورغ »، وتُعْرب عن تأثرها الشديد بـ « اتساع رقعة الجهد المبذول، وبنمط التنظيم الذي يعتمد عليه هذا الجهد، وبالتشديد على الدراسات الحديثة ». ثم تُلفت انتباه الحكومة البريطانية إلى النقاط التالية: « قوة الدعم الذي تخصصه حكومة الولايات المتحدة للدراسات الشرقية والصقلبية، نظراً لأهميتها القومية. الجهود المبذولة من قبل مراكز دراسة المجالات لإسقاط الحواجز الفاصلة بين مختلف فروع المعرفة، والعمل على تقدُّم دراسة هذه المجالات تقدماً متوازياً. المفعول المنشط الناشىء عن التشديد على الدراسات الحديثة، دور المنح التي تُدفع للطلاب المجازين بغية توجيههم نحو حقول عمل جديدة، قيمة الدروس اللغوية المكثفة والمساعدات الآلية المعدَّة لتخطّي صعوبة اللغات التي لا تُدرَّس في المدارس، ولتقليص مدة التعلُّم ».

هل يعني ذلك، أنه ينبغي تقليد الولايات المتحدة حرفياً؟ « إن تقاليد التبحُّر الكلاسيكي والهلّيني والشرقي أضعف ممَّا هي عليه في أوروبا... وحقل البحوث البريطانية في هذا الميدان، ولا سيما في الدراسات الشرقية، يقع بين التقاليد الكلاسيكية واللغوية الصارمة في أوروبا الغربية، وبين التطوّرات الحديثة التي تشدِّد على العلوم الاجتماعية في أميركا »[٢٩]. فينبغي تأمين الحوار، فضلاً عن تأمين مصالح الدولة، عن طريق توسيع الأعمال وتجديدها وتحسين نوعية الباحثين، لا عن طريق « اقتحام » الموضوع المدروس من قِبَل الاستشراق الاوروبي.

أمَّا أن تكون هذه المسلمة في صميم الاستشراق الاوروبي بأسره ـ سواء كان تقليدياً أم متجدداً ـ وتظل مضمرة لدى جميع العلماء الاوروبيين غير الاشتراكيين، فأمرٌ لا يختلف حوله عاقلان. هكذا عندما يستعرض، « سير هاملتن أ. ر. جيب » تاريخ الاسلام، منذ أصوله حتى أيامنا هذه، يعتمد على تسعة عشر مؤلفاً أوروبياً، ليس بينهم سوى شرقي واحد هو أ ع. عفيفي[٣٠]. وعندما انعقد مجمع السوسيولوجيا الاسلامية في بروكسل

(بين ١١ و ١٤ ايلول ـ سبتمبر ١٩٦١) ليستمع إلى عشرين متكلّماً، لم يكن بينهم عالم شرقي واحد، الأمر الذي أثار، بحقّ احتجاج «جاك بيرك»[٣١]. رغم ذلك، فقد كان بيت القصيد في المجمع المذكور يتعلّق بتطور المجتمعات العربية والاسلامية في القرن العشرين... وقد حاول المؤرخ المصري حسين مؤنس أن يلفت الأنظار عبثاً إلى أن قسماً كبيراً ممّا عُرض في المجمع قد تجاوزه الزمن، وصار متأخراً عن ركب التاريخ الذي يصنع نفسه[٣٢]. وكتابات «فون غرونباوم» الأخيرة تنتمي إلى النظرة نفسها، غير أن الثقافة الفلسفية الرصينية التي يتمتع بها مؤلفها تتيح له، مرات عديدة، أن يقدّم تحليلات متراصة البنية يشتم منها الجهد المبذول لتخطي العادات القديمة[٣٣]. أمّا أطروحة «فنسن مونتي» التي صدرت مؤخراً حول «العربية الحديثة»، فتحفل بالأخطاء والمغالطات ـ خلافاً لكتاب «هانس وير» ـ وتشكل نموذجاً صارخاً عن الرغبة في التنظير، دون معرفة بالحقل المدروس من داخله[٣٤].

□ ٢ ـ **مناهج الدراسة والبحث:** أ ـ ما زال الماضي يحتل المكانة الأولى في الدراسات الشرقية. لكنه لم يعد يستأثر بها. فمقتضيات السياسة، وانتقال مركز الثقل إلى خارج أوروبا، والانفعال الذي تولّد عندما خطت شعوب الشرق خطواتها الجريئة، بعدما كانت خاضعة وطيّعة، على تفاوت، وحاجات تنقيح بعض عادات العمل من أجل مجاراة العلوم الاجتماعية الأخرى ـ كل هذه العوامل ساهمت بصورة حاسمة في توجيه دراسات الاستشراق الجديد نحو العصر الحديث بل المعاصر.

ب ـ غير أن هذا الحاضر الذي اتخذ أخيراً موضوعاً للدراسة (لقاء صعوبات بالغة في كثير من الأحيان) لم يكن بمنحى عن مقتضيات تكوين النمائط الخاصة بمختلف شعوب الشرق. والتوسط بين المقتضيات الاجتماعية السياسية لتكوين هذه النمائط، وبين الحداثة يتم عن طريق الفلسفة البنوية. إذ تعمد هذه الفلسفة، كما هو معلوم، إلى دراسة قطاعات من الواقع بما هي قطاعات، أي بمثابة «بنى». فهي لا تدرسها، ولم تعد تدرسها، بوصفها نتيجة، أو حصيلة أو منحى لتطور تاريخي. هكذا تبدو البنيوية في العلوم الاجتماعية بمثابة أفضل تعبير مقبول ـ أفضل تعبير موضوعي ـ للظاهراتية، التي هي الشكل السائد في الفلسفة اللاعقلانية في زماننا؛ بيد أن المنهج البنيوي في الاستشراق يتحرك على أرض معروفة، إذا جاز القول، إذ إن البنيوية قد انبثقت عن الألسنية مع دروس «ف. دي **سوسور**» حول «الألسنية العامة» بين (١٩٠٦ ـ ١٩١١) (طبع كتاب دي سوسور «دروس في الألسنية العامة» عام ١٩١٦).

هكذا، فإن المستشرقين التقليديين، وهم في معظمهم لغويون أو اختصاصيون بالأديان، ومعتادون على البنيوية، قد التقوا بيسر مع زملائهم الحديثين أصحاب الاستشراق الجديد، الذين كانت البنيوية توفر لهم الوسيلة الموثوقة المأمونة ـ فضلاً عن اتصافها بـ «الحداثة» ـ لبناء صياغتهم ضمن حلة جديدة.

ج ـ ثم دأب الدائبون على التجريح بالعمل العلمي الذي تمَّ في بلدان الشرق، إمّا عن جهل (إذ صار من

الصعب أكثر فأكثر، إن لم يكن من المستحيل، التنظير لقطاع بكامله - عربي، صيني، آسيوي، أميركي/لاتيني، اسلامي - انطلاقاً من وثائق محصورة حتماً، بينما يزداد الانتاج المحلي ويتكاثر يوماً بعد يوم، وإمّا استمراراً في الحرص على أولوية (نظرية) للمعرفة[٣٥].

د - أمّا منهج المشاركة والتوغّل الذي نادى به «جاك بيرك» ونفّذه، فهو أجدر بالاهتمام: «في شأنِ حي، ملحّ، مكابد، مثل هذا الشأن، تحتفظ الوسائل العلمية الاعتيادية بقيمتها، وهي قيمة كبيرة: لكنها لا تكفي. ينبغي على المرء أن يعيش على صلة بهؤلاء البشر، وأن يسعى إلى الإلفة معهم. بحيث يصل في ذلك إلى حد التغاضي والتواطؤ فهل يتسنّى له ذلك إذا لم يتوفر لديه عنصر الهوى والشغف؟»، ثم يكتب «بيرك» بحق، عن هذا «التقصي الذي يتصف بالمشاركة أكثر من أيّ وقتٍ مضى» فيقول: «لن تكون الانطباعية نقطة القوة لديّ. فدورنا يقوم على الفهم. غير أن على التحليل، حتى يكون فعّالاً ويصل إلى الاعماق، أن لا يعزل الوقائع عن سياقها الانفعالي، ولا عن المعنى الذي تلونها به التجربة المعاشة»[٣٦].

أما «كنتويل سميث»، الذي ينتمي إلى الوسط الكندي غير «الامبريالي»، فيرى أن قيمة هذه المشاركة تتوقف على حكم السكان الأهليين: «فالعمل يفشل أيضاً إذا كان المسلمون الاذكياء والمتجردون عاجزين عن تقدير دقة ملاحظاته، فضلاً عن مدى تفسيراته وتحليلاته ورغبتها في توضيح الأمور»[٣٧].

□ ٣ - أدوات الدراسة والبحث:

أ - في هذا الصدد تعتزم القوى الغربية، لا سيما الولايات المتحدة، إضافة مراكز جديدة لمراكمة الثروات والمواد الثقافية، إلى جانب المستودعات القائمة حالياً. والوسائل هنا لا سبيل إلى مقارنتها مع كل ما يملكه الشرق بمؤسساته العلمية وباحثيه[٣٨].

ب - التعاون مع علماء بلدان الشرق وباحثيها، يُعتبر ضرورة موضوعية. غير أننا سنلاحظ أن الولايات المتحدة تضع بمتناول هؤلاء مراكز ووسائل إشعاع واسعة نسبياً[٣٩]. بينما يتم هذا التعاون في أوروبا الغربية على صعيد ثانوي[٤٠].

رغم ذلك فقد أفضت الواقعية لدى «هـ. جيب» - بعد أن وضع ثبتاً بإفلاس الدراسات التاريخية حول الشرق الحديث - إلى المناداة بوجوب تقسيم العمل: «إن أولى مهام (الباحث) الجامعي الغربي هي أن يبحث في المصادر الغربية وينسّق بينها ويقيّمها بصورة نقدية. أمّا الميدان المخصوص بالنسبة للجامعي الأهلي، فهو التنقيب عن الأراشيف والمواد الوثائقية المحلية وتنظيمها». ويستطيع المرء أن يلاحظ أن «التقييم النقدي» للعناصر المجتمعة ليس من مهمة الجامعي الاهلي...، في نفس الوقت «ينبغي أن يكون معلوماً، دون أي

التباس، أن الجامعي الغربي لا يسعه أن ينجز أيّ عمل على المستوى الأكاديمي في مجاله الخاص، إلاّ إذا كان يملك معرفة سليمة باللغة العربية أو الفارسية أو التركية حسب مقتضى الحال، فضلاً عن إلمامه بالخلفية التاريخية والثقافية». هذا يعني على وجه التأكيد، «أن على الطالب الناضج، الذي يدرس تاريخ الشرق الأوسط، أن يكون إلى حدٍ ما، مستشرقاً». لكن «المؤرخ لا يكون مؤرخاً جيداً في مجال الشرق الأوسط، إلاّ إذا كان يتمتع بخصال تقنية في مجال أوسع»[٤١]. فالأولوية معطاة إذن للإعداد العلمي الاختصاصي الذي يرفده ويكمّله إعداد لغوي عرقي ـ ثقافي مناسب.

لقد عالجنا حتى الآن الاستشراق الغربي الجديد، كما يجب أن يعالج. لكن استمرار «المحورية ـ الاوروبية»، بشكل موازٍ له، عبر التجلّيات التحديثية التي اضطلعت بها غداة الحرب العالمية (الثانية)، وازدياد حدة الصراع المباشر بين البلدان المستعمَرة (في الشرق) والقوى الامبريالية (في الغرب)، سوف يساعدان على نشوء فئة فرعية جديدة هي فئة الناشرين والصحفيين المتخصصين بشؤون آسيا وافريقيا، فضلاً عن امتداداتها الجامعية هنا وهناك. ثم إن الجهل بلغات الشعوب الشرقية غالباً ما يقترن باعداد علمي تتخلله الفجوات والثغرات. فأساليب البيان والبلاغة، وشهرة الصحفي الكبير سوف تُتَّخذ عربوناً وحجة لإصدار منشورات مضلِّلة تتحوَّل بدورها إلى مصادر استعلام مباشر و «اختصاصي» بالنسبة لمثقفي الشرق وجمهور الغرب على السواء[٤٢].

□ الاستشراق الجديد في القطاع الاشتراكي:

نتحدث هنا، بشكل رئيسي، عن القطاع الاشتراكي (من دول وحركات) في اوروبا. والواقع، أنه رغم وجود ساحة مشتركة، فإن العمل الذي تم في الصين يبدو أقرب إلى التصوُّرات التي هي تصورات الدول القومية المستقلة غير الاشتراكية والحركات الاشتراكية في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية.

وقد اهتم باحثو القطاع الاشتراكي بالدراسة المعمَّقة لبلدان الشرق، في أعقاب الحرب العالمية الثانية: لقد أشرنا إلى الدور الرائد الذي قام به «جاك بيرك» في الحقلين العربي والاسلامي، عندما قام بذلك التنقيب الواسع الذي يتكوَّن بشكل رئيسي من كتبه الثلاثة «فقدان امتلاك العالم ـ (١٩٦٤)»، و «مصر، الامبريالية والثورة ـ (١٩٦٧)»، و «الشرق الثاني ـ (١٩٧٠)» فضلاً عما يكتنفها من أعمال تنتمي إلى فروع معرفية عدة. وقد شرع «**مكسيم رودنسون**»، منذ (١٩٥٠)، يمعن النظر والفكر في الاستشراق التقليدي، بالعلاقة مع مد حركات التحرر القومي في البلدان العربية والاسلامية[٤٣]. في نفس الوقت بدأ «**جان شينو**» أطروحته حول «الحركة العمالية الصينية من ١٩١٩ إلى ١٩٢٧»[٤٤]. وبدا العالم البيولوجي البارز «**جوزف نيدهام**»

ينشر في كامبردج، بدءًا من (١٩٥٤)، وبعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدؤوب، أول مجلَّد من موسوعته «العلم والحضارة في الصين»، التي تطمح إلى تزويد حضارة عصرنا وثقافته ببعدهما الثاني ـ البعد الصيني ـ بعد أن ذهب هذا البعد ضحية الإهمال ابتداءً من القرن الثامن عشر (الاوروبي). وتعتبر هذه الموسوعة الضخمة نموذجاً للتبحُّر العميق، والدقة العلمية والعمق النظري، بحيث أنها وُصفت بحق بأنها «أعظم عمل تأليفي في التاريخ وفي تواصل الثقافات فيما بينها، ينصرف إليه كائن بشري»[٤٥]، [ل. بيكن].

أمَّا في البلدان الاشتراكية، فقد كانت المسألة كناية عن استعادة لتراث قديم، صير إلى توجيهه باتجاه اهتمامات جديدة، بناءً على المنهجية الماركسية وعلى بروز الشرق من الناحية السياسية[٤٦].

فقد أعطى مؤتمر تضامن الشعوب الافرو ـ آسيوية في باندونغ (ابريل/نيسان ١٩٥٥) دفعاً حاسماً لعملية التجديد الثقافي ـ لا سيما في التاريخ والعلوم الاجتماعية والأدب ـ في القارتين؛ وما لبث أن انعقد، بعد هذا المؤتمر، المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (١٩٥٦)، فحدد «المسار الجديد»، للاستشراق السوفياتي. وقد عالج المؤتمر الأول للمستشرقين السوفيات، الذي انعقد في طاشقند (١٩٥٧) أربعين موضوعة عامة، نخص بالذكر منها:

١ ـ تهافت الستام الامبريالي؛ ٢ ـ مهامّ الاستشراق السوفياتي بعد المؤتمر العشرين؛ ٣ ـ الأهمية العالمية لمؤتمر باندونغ.

كما شدَّد المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي على هذا الاتجاه نفسه، الذي وصل إلى أوجه في المؤتمر الأممي الخامس والعشرين الذي عقده المستشرقون في موسكو، في (آب/اغسطس ١٩٦٠).

هذه المقدمة التاريخية القصيرة تساعدنا على وضع تحليل الاستشراق الجديد في القطاع الاشتراكي في موضعه.

□ ١ ـ **التصوُّر العام**: أ ـ على صعيد **المشكلة**، ينبغي أن تكون نهاية الهيمنة الأوروبية من الناحية السياسية ـ وهو أمر أقره مؤتمر باندونغ، والأونيسكو، وتقرير «هايتر» والاطروحات الايديولوجية لدى القادة الصينيين، من بين من أقروه ـ مصحوبة بنقد أساسي «للمحورية الاوروبية»، أي برفضها والتخلِّي عنها نهائياً من حيث المبدأ. «إن الحضارة الغربية ما زالت تعاني من عجرفة ثقافية لا مبرر لها تشوِّه صلاتها بشعوب العالم الأخرى. ويمكن أن تصح تسمية ذلك بـ «اللؤم الروحي في أعلى درجاته»، كما تصح تسميته بـ «روح الشر في الأمور الإلهية». وبعد أن يندد ج. **نيدهام** بـ «نفسية السيطرة التي ما زالت على قاب قوسين»، يضيف قوله: «إن العملية التي تمكِّن شعوب آسيا من المشاركة، بدورها، في جميع مكاسب العلم الحديث، ومن دراسة عالم الطبيعة

على نحو جديد، ومن قراءة «مجلة الفيزياء البيولوجية» (مثلاً)، ودراستها والتعليق عليها واستيعابها داخلياً، ومن اكتساب احترامها لنفسها من جديد بوصولها إلى مستوى من المعيشة يضارع المستوى الذي وصل إليه أيّ جزء آخر من العالم، مع احتفاظها بكل ما في تراثها الثقافي والديني من أوجه مشرقة.. هذه العملية ما زالت عملية بطيئة»[٤٧]. «إن الخطأ الأساسي الذي ترتكبه المحورية الاوروبية، يكمن في المسلمة الضمنية التي تعتبر أن كل ما هو أوروبي هو في الوقت نفسه شامل، لا لشيء إلاّ لأن العلم والتقنية الحديثة اللذين نشآ بالفعل في أوروبا عصر النهضة هما شاملان». ثم يبرهن **نيدهام** على أن هذه المسلّمة باطلة علمياً وتاريخياً في آن واحد، ويشدّد على دور الدين بوصفه وسيلة اختراق وتكامل لاوروبا[٤٨].

وتختلف اللهجة اختلافاً تاماً في الخطاب المهم الذي ألقاه «انستاز ميكويان» النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي، في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين: «من المفروغ منه أن التبدّل الثوري الذي عصف بحياة شعوب آسيا وافريقيا، يغير طابع الاستشراق ومضمونه تغييراً جذرياً، بل إن بوسعنا أن نقول إن السمة النظرية الجديدة في الاستشراق هي أن شعوب الشرق بدأت تخلق، اليوم، علمها الخاص، وبدأت تصيغ تاريخها وثقافتها واقتصادها. هكذا، فإن شعوب الشرق قد تحوّلت من كونها موضوعاً (أو مادة) للثقافة، إلى كونها في مصاف الشعوب الخلاّقة. هذا ما يميِّز هذا المؤتمر عن المؤتمرات التي سبقته».

ب ـ وسرعان ما يقترن هذا التأكيد المبدئي ـ الذي يلتقي مع **النواة الاساسية** لفكر شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، ومثقفيها ـ برؤية سياسية هي رؤية الجبهة العالمية للصراع ضد الامبريالية، فيقول «ا. ميكويان»: «إن من واجب المستشرقين أن يعكسوا في أعمالهم، بصورة موضوعية، أهم العمليات الجارية في بلدان آسيا وافريقيا؛ وأن يعمدوا، بصورة خلاقة، إلى صياغة المشكلات الاساسية لصراع شعوب الشرق من أجل تحررها القومي والاجتماعي والتعويض عن تأخرها الاقتصادي. ويصح أن نقول إن الاستشراق لن يسعه أن يعوّل على كسب اعتبار واسع ولا على النجاح، إلاّ عندما يصبح في خدمة مصالح الشعوب الشرقية»[٤٩]. هذه هي الأفكار التي يعبِّر عنها الاكاديمي «ب. ج. غافوروف»، مدير معهد الاستشراق في موسكو، في كلمته التي اختتم بها أعمال المؤتمر: «إننا معشر المستشرقون السوفيات، نعتبر من واجبنا العلمي، فضلاً عما يمليه علينا وعينا، أن نساعد شعوب الشرق، دونما انقطاع، في صراعها من أجل مستقبل أفضل. وإننا مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية، ومنهجنا العلمي العميق، المنهج الماركسي اللينيني الذي أكد الواقع صحته، كما أكدتها تجربة بلادنا في مضمار بناء الاشتراكية، تجربة مبنية على نظرية علمية تقدمية.. إننا مقتنعون بأن كل ذلك من شأنه أن يساعد شعوب آسيا وافريقيا على إيجاد السبيل الأفضل والأفعل من أجل إحراز التقدم»[٥٠].

ويلاحظ القارىء أن تقييم الاستشراق، تقييماً علمياً، يتم بالعلاقة مع موضوعيته، ومع ما يمكن أن يؤديه من

خدمة لمسألة التحرُّر والبناء القوميين. على هذا الصعيد الأخير ينبغي أن تتم «مؤازرته»، أي مساهمته مع «الذات»، مع «المبدعين».

ج ـ غير أن هناك الكثيرين من المستشرقين الجدد في أوروبا الاشتراكية، ما زالوا يعتقدون ـ على صعيد الموضعة ـ ما يعتقده «ج. شينو»، من أن «مجرد بناء الدراسة العلمية لبلدان آسيا وافريقيا على عموميته العلم التاريخي أو الألسني، يعني الوقوع من جديد، في هذه المرحلة من التطور العالمي، في المحورية الأوروبية. لا لأن الحاجز اللغوي يبرِّر تنظيماً خاصاً للعمل وحسب، بل لأن هناك سماتٍ كثيرة ما زالت مشتركة اليوم بين جميع بلدان آسيا وافريقيا، وما زالت تميزها عن اوروبا، بحيث لا يعود من الضروري أن نعوِّل عليها تعويلاً كبيراً. لقد شاخ مفهوم الاستشراق وتخطاه الزمن، لكن الدراسات الآسيوية والافريقية ما زالت تطرح نفسها مصحوبة بمشكلاتها الخاصة: التخلُّف، تاريخ التوسُّع الامبريالي والحركات القومية، التقاليد الخاصة العائدة إلى القرون الوسطى...، إلخ.»[١٥].

ويشير المؤلف، بحق، إلى اغتناء «النظرية الماركسية العامة لتاريخ العالم» بالعناصر التالية المستمدّة من دراسة الميّزات القومية المخصوصة في آسيا وافريقيا:

أهمية «الأسلوب الشرقي للانتاج» ضمن الإطار العام لتقسيم التاريخ البشري إلى مراحل وفقاً لأساليب الانتاج الاساسية الخمسة[٥٢].

حصيلة الامبريالية الاستعمارية «مع أخذ تناقضاتها الداخلية بعين الاعتبار»، وهي تناقضات «يتجلّى مظهرها الرئيسي في سيطرتها الشرسة وفي جميع ظاهرات التقهقر والركود التي تولدها»، دون أن «نتجاهل ذلك المظهر الثانوي الفعلي الذي يتلخص في عناصر المجتمع الجديدة التي أشار إليها ماركس في معرض حديثه عن الطابع المزدوج للامبريالية البريطانية في الهند»[٥٣].

ظهور حركات التحرر القومي في المستعمرات بوصفها عاملاً متقدماً، من الناحية الموضوعية، على الحركة العمالية في البلدان الاوروبية.

أهمية العامل المسمَّى بـ «النفسية القومية»[٥٤].

ظهور نمط ثالث من الأمم (بالإضافة إلى النمطين اللذين ميِّز بينهما «ج. ستالين») ضمن المجموعة الافرو ـ آسيوية، تبعاً لدرجة تماسكها عبر التاريخ.

«تشميل الفكر الماركسي»[٥٥].

الدور المختلف الذي تلعبه الطبقة العاملة والذي يتجه إلى أن يصبح العنصر المركزي في القوى الشعبية، في

الشعب، لا في الطبقة المهيمنة الوحيدة.[٥٦].

أمّا الصيغة السوفياتية الرسمية ـ بعد المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي (١٩٥٨) ـ فأقرب إلى الصيغة التقليدية: «كثرة المشكلات والظاهرات الجديدة المتصلة بدخول عدد من بلدان الشرق الكبرى طريق النمو المستقل، وخاصة نضال الطبقة العاملة من أجل رفع مستوى معيشتها، ودور الطبقة العاملة في عملية تصنيع البلدان الضعيفة النمو من الناحية الاقتصادية وفي الحياة الاجتماعية والدولة بأسرها».

دراسة المشكلات المتعلقة بالتفاوت الطبقي في صفوف الفلاحين، ومشكلات التطور الرأسمالي المتسارع في الحقل الزراعي، وما ينشأ عنه من نتائج».

«مشكلات نضال الطبقة العاملة من أجل الهيمنة داخل الحركة الفلاحية، في صلب هذه المرحلة الجديدة من النمو، هي مشكلات مهمة تسترعي الانتباه بشكل خاص».

«إن البحث المتعمّق باتجاه إيجاد وتنمية الادبيات القومية في بلدان افريقيا وآسيا يوجّه ضربة قاضية لنظريات المحورية الاوروبية. لذا، فإن دراسة المشكلات المتصلة بالتفاعلات بين أدبيات الشرق والغرب تتخذ أهمية من الدرجة الأولى»[٥٧].

☐ ٢ ـ **مناهج الدراسة والبحث:** أ ـ قبل كل شيء، يصار إلى تحديد «موقف جديد تجاه مشكلة العلاقات بين الاستشراق وبين كل علم من العلوم الانسانية، على أن ينظر إلى كل علم من حيث شموله للكرة الأرضية... فسواء كانت المسألة تتعلق بالتاريخ أم بالاقتصاد أم بالسوسيولوجيا أم بالادب أو بعلم اللغة، فإن على الرئاية أن تعمد إلى نزع الطابع الشرقي، عن الدراسات المتعلقة بآسيا...، وإرجاع هذه الدراسات إلى ما يمكن أن نسميه بـ «الحق العام» لكل فرع من فروع المعرفة». ويتابع «ج. شينو» فيقول: «لا ينبغي أن نتهرّب من عائق اللغة ومن عائق الإرث الاجتماعي والعرقي. لكن علينا، بعد تخطي هاتين الصعوبتين، أن نعتمد نفس المنهج ونفس المشكلة لدراسة البورجوازية الايطالية ولدراسة البورجوازية الاندونيسية لتحليل حركة (Auf Klàrung)، ولتحليل حركة النهضة الادبية في الصين عام (١٩٢٠)، لمعالجة الاقتصاد البريطاني أثناء حصار البر الاوروبي ولمعالجة الاقتصاد الهندي منذ الاستقلال. إن هذا الاتجاه لا يفيد الدراسات الآسيوية وحسب؛ إنه يساعد في نفس الوقت على توفير ركيزة شاملة فعلاً لكل علم من «علومنا الانسانية التي لم يكن عتادها الفهمي ومعطياتها القاعدية تنجم حتى الآن إلاّ عن دراسة أوروبا الغربية، ما خلا بعض الاستثناءات القليلة». رغم ذلك، يظل هناك نوع من الخصوصية المشتركة بين المجموعة الأفرو ـ آسيوية: «إن رئاية التشميل هذه، رئاية وضع الدراسات الاسيوية على قدم المساواة، لا تستبعد أن يظل هناك حتى اليوم علاقات فعلية وصلات موضوعية أوثق بين

مختلف البلدان الاسيوية[٥٨] . يكفي أن نستذكر إسم « باندونغ »، وينبغي أن نعتني أكبر الاعتناء بالتشابهات التي ما زالت تطبع التطوّر الحاصل لبلدان آسيا (وافريقيا على كل حال)، وهي تشابهات ما زالت تميّزها حتى اليوم عن الغرب. لكن الاحتفاظ من الزاوية المنهجية، بمقولة الاستشراق التقليدية، هو أمر آخر، إذ إن ذلك يتفق تماماً مع وحدة منهجية لدراسة مجتمعات الشرق والغرب »[٥٩] .

ثم إن محاكمة الجهل الغربي للشرق قد عُقدت مرات عديدة، لا سيما مع « ج. نيدهام » و « اتيمبل »[٦٠] . فدراسة الفلسفة، في جامعات اوروبا وأميركا، حتى مستوى التخصص والدكتوراه، هي بالدرجة الأولى دراسة الفلسفة الاوروبية؛ في حين أن الفلسفة الصينية، من جهتها، تغطي زهاء (٣٠٠٠) عاماً من النمو المستمر[٦١]، وأن الفلسفة اليونانية، قد تأثرت تأثراً عميقاً بالفكر الديني وبالأساطير المصرية والشرقية، وأن الفلسفة الاسلامية، في العصر الوسيط، قد كانت شيئاً آخر تماماً غير « نقل الإرث الثقافي اليوناني »[٦٢] . وأن مثالية الفكر الهندي قد غذّت حضارة واسعة منوّعة وزاهرة. ويمكننا أن نقول نفس القول بالنسبة لتاريخ العلوم، لا سيما الرياضيات، والحياوة، والطب، والفلك. وقد بدأت اوروبا، مجرد بداية، في اكتشاف ما كانت عليه الأدبيات التقليدية في آسيا وافريقيا، بفضل الأعمال التي قامت بها مختلف بعثات الأونيسكو بشكل خاص. أمّا الحقل الحديث، فيكاد يظل مجهولاً برمته.

ب ـ بعد ذلك، يُصار إلى التشديد على دراسة الحاضر بشكل خاص، دراسة عمليات تطور المجتمعات الشرقية في العصر الحديث والمعاصر[٦٣] . « إن الدراسة المعمقة للمشكلات الراهنة من الفترة المعاصرة، ينبغي أن تصبح مركزية وأساسية ». ويضيف الكاتب السوفياتي إلى ذلك، « أنها تساعد على إيجاد حلول خلاّقة مقبلة لمشكلات السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي تجاه بلدان الشرق، مما يشكّل أمراً مشرّفاً بالنسبة للمستشرقين »[٦٤] .

« إن المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين المنعقد في موسكو، يشير إلى التعاظم السريع في نسبة الدراسات الحديثة. حتى في صفوف المستشرقين التقليديين، فضلاً عن تكاثر الأقسام القومية، وفي ذلك مؤشر قاطع على بروز أمم ودول لم يعد من الممكن جمعها تحت عناوين ذات طبيعة « نمائطية »[٦٥] .

غير أن هذا التعديل الحاسم والقاطع الذي طرأ على وزن كل من القطاعين « الكلاسيكي » و « الحديث » بالنسبة للدراسات الشرقية، لا ينبغي أن يتم على حساب الماضي، فقد كتب « نيدهام » يقول: « إنني لا أعتزم أبداً أن أقلّل، بأية صورة من الصور، من شأن التحسين الخارق الذي أدخلته الحكومة الصينية الحالية، بقيادة الحزب الشيوعي، على وضع « الأسماء المئة القديمة ». في نفس الوقت، قد يكون من الصعب جداً على الغربيين أن يفهموا ذلك، فيما لو تغافلوا عن بعض الخصائص القديمة التي تتسم بها الثقافة الصينية التي يجهلونها في أغلب

الأحيان جهلاً محزناً. والواقع أن هناك كتّاباً معاصرين يعمدون أحياناً، بدافع البرهان على التجديد الذي أحدثته النهضة في بلادهم، إلى التنكر لماضيهم بالذات، إمّا عن طريق إشارتهم إلى جوانبه الغامضة، كخضوع النساء، وجشع ملاكي الأراضي، وإمّا عن طريق استهانتهم بفلسفة الفترات السابقة أو بانتاجها الفني. هذا معناه، أنهم ينشرون جذع الشجرة الذي يجلسون عليه. والواقع أن سائر العالم بحاجة إلى التعلّم، بكل تواضع، لا من الصين المعاصرة وحسب، بل من الصين منذ كانت. إذ إن في الحكمة والتجربة الصينيّتين أطباء لعدد كبير من الأمراض الفكرية، فضلاً عن عناصر لا غنى عنها بالنسبة لفلسفة البشر المقبلة»[٦٦].

ج ـ إن التصوّر الماركسي للتاريخ والمنهجية التي ترافقه، يغذيان، بالطبع، القسم الرئيسي من هذه الأعمال. غير أننا نلاحظ أن علماء القطاع الاشتراكي يضمّون أيضاً أناساً بارزين غير ماركسيين ـ مثل «ج. نيدهام» ـ يندرجون ضمن فئة أوسع هي فئة العقلانية الفلسفية.

لكن حاجات النشاط العملي، لا سيما حاجات التجمعات، تدعو المستشرقين الجدد في القطاع الاشتراكي أحياناً ـ خاصة في بلدان أوروبا الغربية ـ إلى التعامل مع مناهج غير عقلانية، ـ وبالدرجة الأولى مع مناهج من نوع الظاهراتية تتجلّى عبر النمطية، وتنتمي مباشرة إلى البنيوية الشائعة ـ، ممّا يفسد الدقة العلمية ويعطّل الإخاء الأساسي في العمل، الذي ينبغي البحث عنه لدى المثقفين في بلدان الشرق المناضلة من أجل تحرّرها وتقدمها[٦٧].

□ ٣ ـ **أدوات الدراسة والبحث:** أ ـ لم يتوفر للدول الاشتراكية، وخاصة الاتحاد السوفياتي، نفس المصادر من المواد ـ المباشرة أو الوسيطة ـ التي توفّرت للقوى الاستعمارية وكانت وقفاً عليها وحدها. بالمقابل، فقد أدّت العلاقات الوثيقة التي نشأت بين الاتحاد السوفياتي والدول والحركات الشعبية الافرو ـ آسيوية، منذ مؤتمر باندونغ بشكل خاص، إلى شروع الفريقين ببذل جهد عظيم بالفعل في ميدان الاستشراق الحديث، فكان: «معهد شعوب آسيا» قرب أكاديمية العلوم، أكبر معهد على الصعيد العالمي. وأخذت الجامعات بأسرها تنظم دراسات حول آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية؛ وقد صدرت مجلات علمية جديدة ومهمة، بعد أن تضمنّت جميع أكاديميات العلوم في جمهوريات الاتحاد السوفياتي أقساماً أو هيئات تنصرف إلى هذه الدراسات. ويصل عدد العاملين في هذه الأقسام والهيئات حالياً، (في عام ١٩٦٢) إلى ما يتراوح بين (١٨ و ٢٠ ألف) شخصاً (من أساتذة وباحثين ومساعدين تقنيين ومترجمين وخبراء مكتبات... إلخ.) وهناك دار للنشر مختصة بالكتب الشرقية تنشر، وحدها، كتاباً جديداً كل يومين أو ثلاثة. كما أن الدراسات الحديثة تتقدّم برفقة الاستشراق الكلاسيكي، الذي كان مزدهراً في روسيا الأمس. وأخيراً أنشىء «معهد افريقيا» عام (١٩٥٩) تحت إشراف الاكاديمي «ا. بونهكين»[٦٨]، فأدى ذلك خلال سنوات قليلة، إلى إحداث تغيير مفاجىء في المعطيات

العلمية للدراسات التي تتناول الشرق الحديث والمعاصر: فلم يعد من الممكن، منذ ذلك الحين، أن ينصرف المرء إنصرافاً عميقاً لتلك الدراسات، إلاَّ إذا كان يجيد اللغة الروسية، فضلاً عن اللغات الاوروبية التقليدية، وعن لغة واحدة أو عدة لغات شرقية.

ب ـ أمَّا العمل العلمي، الذي يقوم به الباحثون والعلماء من مختلف بلدان الشرق، فلا يُقدَّر ويُقيَّم ويُسعى للبحث عنه وحسب ـ إذ هذا أمر مفروغ منه ـ بل يوضع، كما يليق به، في مرتبة مرموقة. ويتحدث «**ج. شينو**»، بعد آخرين، «عن مشكلة أهلية الأجانب لدراسة الوقائع الاجتماعية المعاصرة، بنفس فرص النجاح المتوفرة للوطنيين». والواقع، «إن هؤلاء الآخرين يمتازون عنهم، بالطبع، بمعرفتهم للغة، فضلاً عن تعاطيهم بالفطرة مع كل المحيط العرقي، مع كل إرث هذه الشعوب الآسيوية». «فإذا دفعنا هذا المنطق إلى أقصاه، لكان بوسعنا أن نتساءل عمَّا إذا لم يكن من المعقول أن نعتبر أن دراسة المشكلات المعاصرة تقوم بالدرجة الأولى على عاتق الوطنيين، بينما نجد أنه كلما توغلَّت موضوعة الدراسة في الماضي، كلما كان من الأسهل على المتبحِّرين، غير الآسيويين، أن يعالجوها». والنتيجة التي يصل إليها «شينو» تلتقي، جزئياً، مع النتيجة التي وصل إليها «هـ. جيب» وذكرناها أنفاً: «إذا كان يسعنا هنا، أن نتحدَّث عن امتياز قومي، فليس يسعنا أن نتحدث عن استئثار قومي بالنسبة لما يعني دراسة العالم المعاصر. فثمة أجانب يأتون من أمكنة بعيدة، حاملين معهم إرثاً ثقافياً أو اجتماعياً مختلفاً. فيتمكَّنون غالباً من التوغل بسرعة شديدة، ومن جهة أصيلة، في حياة شعوب أخرى. فمن بين أفضل المؤلفات التي كتبت حول الحياة السياسية منذ خمسة أعوام، نجد، مثلاً، دراسات انجلو ـ ساكسونية»[٦٩].

أمَّا السياسة الثقافية في الصين، فلا تبدو في الوقت الحاضر، منفتحة مثل هذا الانفتاح على الباحثين الأجانب: «فأول ما ينبغي ملاحظته هو أن البحث الأكاديمي (بالنسبة للباحثين الأجانب) هو نادر جداً». والأطروحة المركزية هي «أن الأجانب لا يستطيعون فهمنا: فحقل العلوم الصينية يخص الصينيين». رغم ذلك، «فإذا كان من الممكن القيام بهذه الدراسة بواسطة مواد معينة، ووثائق رسمية وبمساعدة توجيه متيقظ، لأصبحت معالجة أحد المواضيع الحساسة أمراً ممكناً. ولكن إذا كانت الدراسة تقتضي الملاحظة المباشرة الميدانية، بدون توجيه، كما تقتضي اشتراك الناس بها اشتراكاً حراً وواسعاً، فضلاً عن العمل المستقل» فإن العوائق تنتصب عندئذ «إلاَّ بالنسبة للأجانب المأمونين والموثوقين». «وقد يبدو، للوهلة الأولى، أن علم الأثريات حقل سياسي غير حساس. لكنه، من جهة أخرى، يقع ضمن الحقل المخصص للصينيين وحدهم، أي أنه حقل يتناول دراسة كنوزهم القومية الخاصة وتفسير تاريخهم الخاص. في هذا الصدد، لا بد للاختصاصي الياباني أن يتذكر إلى أيِّ حد تتصف أثريات اليابان، ما قبل الحرب، بالحساسية البالغة». غير أن المؤلف

الأميركي لهذه الدراسة[٧٠] يشير إلى المساعدة الذكية والكثيفة التي قُدِّمت لـ « ج. نيدهام »، وإلى المساعدة المحصورة التي تلقاها « ج. شينو »، بينما استفاد « ر. ديمون » و « جيوس » و « فيتز جيرالد » (زيلندا الجديدة) و « س. شاندرازيخار » (الهند) من ضيافة رحبة جداً. هنا، نجد أن موقف القادة الشيوعيين في جمهورية الصين الشعبية أقرب إلى موقف الدول القومية المستقلة في آسيا وافريقيا، منه إلى موقف البلدان والحركات الاشتراكية في أوروبا.

ج - ثم إن على نمط الباحث العلمي نفسه، أن يتغيَّر تغييراً جذرياً. فدراسة اللغة العربية الكلاسيكية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، ودراسة التصوُّف الاسلامي تمكِّنان صاحبها من التحدث عنهما، لا من فهم التمايز الحاصل في بورجوازية هذا البلد العربي أو ذاك وانقسامها إلى قطاعات عدة، ولا من إدراك مشكلات الأدب العربي الواقعي بعد عام (١٩٤٥)، ناهيك بفهم ايديولوجية مختلف الأطراف التي تتكوَّن منها الحركة القومية والديمقراطية[٧١].

إن « تسوية » الدراسات الشرقية، تضع في المرتبة الأولى صلابة وعمق الإعداد الاختصاصي، في هذا القطاع أو ذاك، من العلوم الانسانية والاجتماعية (اقتصاد، حقوق، تاريخ، سوسيولوجيا، علوم سياسية، فلسفة، جماليات... إلخ.). وينبغي أن يكون هذا الإعداد مقترناً بدراسة سريعة، ولكن كافية إلى حد معقول، للغة البلد أو القطاع المدروس؛ كما هي في العصر الحديث والمعاصر، ووفقاً لنوَّعاتها المكتوبة والمحكيَّة. أمَّا هدف هذه الدراسة اللغوية، فهو تمكين الباحث من الوصول بيسر وبصورة مباشرة إلى المواد الأولية من جهة، والتمهيد لفهم الحياة اليومية للبلد المدروس فهماً نفسانياً وسوسيولوجياً، من جهة أخرى. ويستغرق هذا « الإعداد المزدوج » في الاتحاد السوفياتي مدة ثماني سنوات، بينما تعمد الولايات المتحدة إلى إعداد لغوي « متسارع » بعد انهاء الدراسات الاختصاصية[٧٢]. أمَّا الاهتمامات الرسمية للبلدان الانكلو - ساكسونية فتلتقي، حول هذه النقطة، مع اهتمامات القطاع الاشتراكي الاوروبي، كما تلتقي في الوقت نفسه، ومن حيث الجوهر، مع نظرة بلدان الشرق نفسها.

لقد حان الوقت لاعتماد توجه جديد بالضرورة. ويرى المرء، من الناحية الموضوعية، أن مختلف قطاعات الاستشراق المعاصر، في السنوات الأخيرة، قد بدأت تعي هذه الضرورة.

الحواشي

(١) حول التاريخ العام للاستشراق التقليدي، وخاصة ما تعلّق منه بالعروبة والاسلام حتى العام ١٩٦٢ . هناك عدد كبير من المراجع نخص بالذكر منها :

ف . ف . بارتولد « **اكتشاف آسيا ، تاريخ الاستشراق في اوروبا وروسيا** » ، الترجمة الفرنسية ، باريس ، ١٩٤٧

- V. V. Barthold «La decouverte de l'Asie, Histoire de l'orientalisme en Europe et en Russie»

- لا نعثر على مادة استشراق في انسيكلوبيديا الاسلام (Encyclopedie de l'Islam), ولا في الانسيكلوبيديا بريتانيكا (Encyclopedia Britannica). في الانسيكلوبيديا السوفياتية : مادة «Orientalistika» - موسكو، ١٩٥١ ، المجلد التاسع (ص ١٩٣ - ٢٠٢) ، جيوفاني فاكا . «Orientalisme» في الانسيكلوبيديا الايطالية للعلم والادب والفن » - روما ، ١٩٣٥ ، المجلد ٢٥ ، (ص ٥٣٧) : (Encyclopedia italiana di scienze. lettre ed arti.)

● ليفي ديلا ڤيدا ، « **حول الدراسات العربية في ايطاليا** » مجلة نيوفا انطولوجيا ، عدد كانون الاول ١٩١٢ (ص ١ - ١٠)

- G. Levi Della Vida. «Pergli studi arabi. in Italia», Nuova Antologia.

● أ ، بوزاني ، « **الدراسات الاسلامية في ايطاليا في القرنين التاسع عشر والعشرين** » مجلة الشرق والغرب ، العدد ٨ ، ١٩٥٧ ، (ص ١٤٥ - ١٥٥) ، و « يومية المجمع التاريخي الباكستاني » العدد ٥ ، ١٩٥٧ ، (ص ١٨٥ - ١٩٩) .

- A. Bausani. «Islamic studies in Italy in the XIX - XX th centuries». East and west. VIII. 1957. 145 - 155. «Journal of Pakistani Historical society». V. 1957. 158 - 199.

● ز . م . هولت ، « **أصول الدراسات العربية في انكلترا** » الكلية - الخرطوم ، ١٩٥٥ ، العدد الاول ، (ص ٢٠ - ٢٧) .

- Z. M. Holt. «the Origin of Arabie studies in England»

● أ . ج . اربري ، « **مقالات شرقية** » - لندن ، ١٩٦٠

- A. J. Arberry. «Oriental Essays». Londres,. 1960.

● م . هورتن ، « **مشكلة المستشرقين** »

- M. Horten. «Die probleme der Orientalistik». Beittrâge zur kennits des orient. XIII. 1916. 143 - 161.

● ج . جرمانوس ، « **الاستشراق المجري ، ماضيه وحاضره** » - مجلة الحضارة الهند واسيوية العدد ٦ ، ١٩٥٧ ، (ص ٢٩١ - ٢٩٨) . - G. Germanus. «Hungarian Orientalism. - Past and present» Indo - Asian Culture. VI. 1957. 291 - 298.

● ل . بوڤا ، « **المجريون والدراسات الاسلامية** » ، مجلة العالم الاسلامي - المجلد الأول ١٩٠٧ ، العدد ٣ ، (ص ٣٠٥ - ٣٢٤) .

- L. Bouvat. «Les Hongrois et les Etudes musulmanes». Revue du monde musulman. I, 1907. N3. 305-324.

● نجيب العقيقي ، **المستشرقون** » - القاهرة ، ١٩٤٧ .

● يوسف أبو داغر ، « **دليل الأعارب إلى علم الكتب وفن المكاتب** » - بيروت ، ١٩٤٧ : الكتب الأجنبية ، (ص ١٥٠ - ١٦٠) . العربية ، (ص ١٦١ - ١٦٧) . « فهارس المكتبة العربية في الخافقين » - بيروت ، ١٩٤٧ ، (ص ١٠٥ - ١١٢) . « مصادر الدراسة الأدبية » المجلد الثاني ، ١٨٠٠ - ١٩٥٥ ، بيروت ، ١٩٥٥ ، (٧٧١ - ٧٨٧) .

● ج . فويك ، « **الدراسات العربية في أوروبا** » - لايبزغ ، ١٩٥٥ .

- J. Fueck. «Die arabischen studien in Europa» - Leipzig. 1955. ... إلخ .

(٢) انظر مادة **Orientaliste** في موسوعة لاروس الكبرى ، باريس ، ١٩٦٣ .

Grand Larousse encyclopedique. Paris. 1963. VII. (1003 - 1004).

(٣) والمقصود هنا كتاب الاستاذ البرليني الشهير:

Paideia. Die Formung des griechischen Menschen (I. Berlin - Leipzig. 1934).

الذي يلخصه **م. غويدي**، على هذا النحو: «ليس بوسع أي توسيع للأفق التاريخي أن يغير في كون تاريخنا يبدأ مع الاغريق (...)، إن هذا التاريخ لا يسعه، بالطبع، أن يتناول الكرة الأرضية بأسرها مسرحاً له، بل هو يقتصر فقط على شعوب «المحورية الهلينية» (...)، إذ إن هذه الشعوب هي التي أخذت عن الاغريق المبدأ الواعي الذي يتعلّق بالثقافة الحقيقية (...)، وليس من العسير البتة أن نستخلص النتائج العملية التي تترتب على هذه الصيغة النظرية: ونعني القيمة المطلقة والمركزية التي تتمتع بها العصور القديمة بوصفها معيناً أبدياً ووحيداً للمبدأ المكوّن لثقافتنا، ومن ثم بوصفها قوة تشكيل وتثقيف لمذهب انساني كلي»، (م. غويدي، «**ثلاث محاضرات حول بعض مشكلات الاستشراق العامة**» حوليات معهد فقه اللغة والتاريخ الشرقيين، مجلّد مهدى إلى جان كوبار، بروكسل ١٩٣٥، ص ١٧١ - ١٧٢).

- **M. Guidi. «Trois Conferences sur quelques problèmes généraux de l'Orientalisme».** Annuaire de l'institut de philologie et d'histoire orientales - volume offert a Jean Copart, Bruxelles. 1935. 171 - 172.

(٤) خط التشديد لنا (المؤلف). وهي تتم بوضوح عن مرجعية الذات، أي أوروبا.

(٥) م. غويدي، المرجع المذكور سابقاً، (ص ١٧١ - ١٨٠)؛ وهو في عام ١٩٥٤، يحدد الاستشراق كما يلي: «إن العالم بأمور الشرق، أي المستشرق الجدير بهذا الاسم، ليس ذاك الذي يقتصر على المعرفة ببعض اللغات الغريبة، أو ذاك الذي يستطيع وصف العادات والتقاليد التي تشبعها بعض الشعوب الاجنبية، بل ذاك الذي يقوي على الجمع بين دراسة بعض الجوانب من الشرق وبين معرفة القوى الروحية والمعنوية الكبرى التي أثّرت على تكوين الثقافة البشرية، إنه ذاك الذي نهل من معين الحضارات القديمة واستطاع أن يقيّم أدوار مختلف العوامل التي ساهمت في تكوين حضارة القرون الوسطى مثلاً، أو حضارة النهضة الحديثة» («علم الشرق وتاريخ العمران»، الزهراء، ربيع الأول ١٣٤٧ هجرية، آب - أيلول ١٩٢٨، عند يوسف أسعد داغر، «مصادر...»، ص ٧٧١).

(٦) حول تعريف «المحورية الاوروبية»، انظر بشكل خاص: ج. نيدهام «حوار اوروبا وآسيا»، مجلة كومبراندر، العدد ١٢، ١٩٥٤، (ص ١ - ٨).

- **J. Needham. «La dialogue entre l'Europe et l'Asie».** Comprendre. No. 12. 1954. 1 - 8.

وانظر أيضاً مقدمة كتابنا «**مصر مجتمع عسكري**» باريس، لوسوي، ١٩٦٢؛ (ص ٩ - ١٣).

- **A. Abdel - malek. «Egypte société militaire».** Paris. Le Seuil. 1962. 9 - 13.

(٧) ر. شواب، «**الاستشراق في ثقافة وآداب الغرب الحديث**» - اورينتو مودرنو، المجلد ٣٢، ١٩٥٢، العددان الأول والثاني، (ص ١٣٦).

- **R. Schwab. «l'orientalisme dans la culture et les litteratures de l'Occident moderne».** Oriento Moderno XXXII. 1952. No. 1-2, 136.

(٨) أ. ج. اربري، المرجع المذكور سابقاً.

(٩) ي. أ. داغر، «**مصادر...**»، ص ٧٧٩ - ٧٨٠. [مرجع سابق].

(١٠) ج. بيرك، «**مائة وخمسة وعشرون عاماً من علم الاجتماع المغربي**» - حوليات، مجلد ١١، عدد ٣، ١٩٥٦، (ص ٢٩٩ - ٣٢١).

- **J. Berque. «Cent Vingt - cinq ans de sociologie maghrébine».** Annales. XI. 1956. No. 3.

(١١) أوَليست الدراسات العليا، وخاصة منها الدراسات الشرقية، من لغوية وتاريخية، تشكل المساعد الأكبر لسياسة التوسع الاستعماري التي تنتهجها إيطاليا؟، (أ. كاباتون) «**الاستشراق الاسلامي وإيطاليا الحديثة**» - مجلة العالم الاسلامي، المجلد ٨، عدد ٢٧، ١٩١٤؛ (ص ٢٤):

- **A.Cabaton, «L'Orientalisme musulman et l'Italie moderne»** - Rev. Md. Mus., VII, 1914, No. 27, 24.

أمّا التعليق المثير الذي كتبه «لورنس»، كملحق لكتابه «**أعمدة الحكمة السبعة**» (لندن، ١٩٦٢) فهو مشهور، وفيه يقع الكاتب في

أحابيل لعبته نفسها:

« إن الأمة الفرنسية تعمل، وتراكم أعمالها، فهي من قناصلها المغامرين إلى طوباويّيها الذين يرسمون الطرق للسكك الحديدية، إلى رحّالتها المبهورين، كلامارتين، وباريس تبني في الشرق صرحاً منيفاً يشيّد أمثال شامبوليون وساسي وريتان جانبه العلمي. في تلك الأثناء يهمل العرب ماضيهم ويتلعثمون في النطق بلغتهم الفصحى. لقد ولد الاستشراق المعاصر من شقوق هذا الفراغ بالذات، إن أعمال التنقيب وإحياء العديد من النزوات المعنوية كانت من نصيب المتبحّر المسيحي، مثلما كان مسيحي المصرفي يعمل على إحياء الأراضي الموات وملء المستودعات (. . .) انظروا مثلاً إلى القبيلة العربية، إلى البداوة بشكل عام. إن الاستشراق يعالجها لصالح ثلاث دفعات سياسية كبرى: حقبة « مكتبنا العربي » في الجزائر حتى عام ١٨٧٠، ثم حقبة « الثورة في الصحراء » إبّان اقتحام العملاء البريطانيين الادنى، ثم حقبة التوسّع النفطي المعاصر » (جاك برك ـ « آفاق الاستشراق المعاصر »).

- J. Berque. «Perspectives de l'Orientalisme contemporain». - Ibla. XX. 1957. 220 - 221.

في عام ١٨٣٢، ندب مؤسسو « الشركة الآسيوية » أنفسهم « لمساعدة المؤرخين على تفسير المخلفات القديمة التي تركتها شعوب الشرق »، ولجمع « وثائق ثمينة حول العمليات الدبلوماسية التي كانت تتم في المشرق، فضلاً عن العمليات التجارية التي كانت تجري في كل أنحاء آسيا ». ومن بين المسائل التي طرحت على المستشرقين في ليون، نلفت النظر إلى المسائل التالية: « هل إن من مصلحة الأوروبيين أن يطالبوا بأن تمنحهم الاتفاقيات حق الاقامة داخل الصين، حتى يتسنى لهم أن يشتروا بأنفسهم من المنتجين كميات الشرانق والحرير، وأن ينشئوا في البلاد مصانع للغزل والحياكة، ويتولوا أعمال التجارة بشكل عام؟ ما هي المكاسب والأضرار التي تنشأ عن مجيء الحمالين الصينيين إلى بلد أجنبي؟ » نصوص يذكرها ج. شسنو، « **الأبحاث الماركسية ويقظة آسيا وافريقيا المعاصرة** » ـ لآبنسيه، عدد ٩٥، كانون الثاني ـ شباط ١٩٦١؛ (ص ٤ ـ ٥).

— J. Chesneaux. «La Recherche marxiste et le réveil contemporain de l'Asie et de l'Afrique» - La pensée. No. 95. Janvier-Fevrier 1961. 4-5.

(١٢) حول النمطية العرقية، انظر، م. رودنسون، « **مصر الناصرية في مرآة الماركسية** » ـ الأزمنة الحديثة، عدد ٢٠٣، نيسان ١٩٦٣، (ص ١٨٥٩ ـ ١٨٦٥).

- M. Rodinson. «L'Egypte nasserienne au miroir marxiste». Les Temps Modernes. No. 203. Avril 1963. 1895 - 1865.

(١٣) ج. بيرك، و ل. ماسينيون: « **حوار حول العرب** » ـ مجلة إسبري، ٢٨، ١٩٦٠، عدد ٢٨٨؛ (ص ١٥٠٦).

- J. Berque et L. Massignon. «Dialogue sur les Arabes». Esprit. XXVIII. 1960. No. 288. 1506.

حول العلاقات بين الاستشراق والاستعمار، إليكم هذه الكلمات التي وردت على لسان ماسينيون: « أنا نفسي كنت متحمساً لعملية الاستعمار في ذلك الحين، وقد كتبت له لكي أعرب عن أملي بفتح قريب للمغرب بواسطة السلاح، وقد أجابني بالموافقة (رسالة رقم ١ لابن صلاح، تشرين الاول ١٩٠٦)، ولنعترف بأن المغرب كان في ذلك الحين يعاني من وضع رهيب. لكن خسين عاماً من الاحتلال ما كان لها بدون « ليوتي » وبدون مثله الأعلى الفرنجي ـ الاسلامي، أن تسفر عن شيء يذكر ». « **فوكو في الصحراء أمام إله ابراهيم وهاجر وإسماعيل** »، أيام الثلاثاء في دار السلام ـ ١٩٥٩؛ (ص ٥٩).

- L. Massignon. «Foucauld au desert devant le Dieu d'Abraham. Agar et Iësma». Les Mardis de Dar el - Salam. 1959. 59.

(١٤) نجد انتقادات محددة لدى « لجنة المساعدات الجامعية: تقرير اللجنة الفرعية حول الدراسات الشرقية والسلافية والاوروبية الشرقية والافريقية » (لندن، ١٩٦١)، بإشراف سير وليام هايتر.

- University Grants Commitée: Report of the sub - Commitee on oriental. slavonic. East European and African Studies (Londres. H.M.S.O.. 1961):

« إن الدراسات الحديثة حول الشرق الأقصى، هي عبارة عن صفحة غامضة لدى جميع المؤرخين أو علماء الاجتماع » (ص ٣٨). « وإذا

أمعنّا النظر في مواصفات الأقسام اللغوية (في الجامعة)، ونظرنا إلى قلة اهتمامها بالدراسات الحديثة واللغات، أدركنا لماذا ساهم كل ذلك في وصولها إلى نتائج مؤسفة» (ص ٤٦)، ... الخ. وقد صدر مصنّفٌ منذ فترة وجيزة بعنوان «**دراسات استشراقية مهداة إلى ذكرى ليفي بروفنسال**» جزءان، باريس ١٩٦٢)، يحتوي على واحد وستين مقالاً، من بينها ثمانية فقط تتناول العصر الحديث، وثلاثة مقالات تتناول الوثائق والمراجع.

- **Etudes d'orientalisme dédiées a la mémoire de Lévi - Provençal,** (2 Vol. Paris. 1962).

(١٥) ج. شسنو، «الابحاث...»، [مرجع سابق]، (ص ٥).

(١٦) عمر الدسوقي، «**في الأدب الحديث**»، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٥٤، (ص ٣٢٥ - ٣٢٦). ي. أ. داغر «**مصادر...**» (ص ٧٧٩). ن. العقيقي، المرجع المذكور سابقاً، (ص ٢٠٧ - ٢٠٩). محمد حسين هيكل، «**حياة محمد**»، مقدمة الطبعة الثانية (الطبعة السادسة القاهرة، ١٩٥٦) (ص ٦٠ - ٦١). أنور الجندي، «**الادب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج**» - القاهرة، ١٩٥٩، (ص ٦٢١ - ٦٢٤)، ثم «**الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**» - القاهرة، ١٩٦٢، (ص ٢٧١ - ٢٨٥)، ... إلخ.

(١٧) لا سيما «معهد المخطوطات العربية» بإشراف الجامعة العربية. «مجلة المخطوطات العربية» التي تصدر عن المعهد المذكور في القاهرة منذ ١٩٥٥. إنشاء «معهد الأبحاث الاسلامية» الجديد التابع لجامعة الأزهر تحت إشراف الأستاذ عبد الله العروي، (الاهرام، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦١)؛ كما تنبغي الإشارة إلى الجهد المبذول في مجال إحياء التراث من قبل وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر، لا سيما بتوجيه من فتحي رضوان وحسين فوزي وثروت عكاشة، وهناك جهود تضارع هذا الجهد في سورية والعراق بشكل خاص. في مصر شرع المفكر الوجودي عبد الرحمن بدوي منذ عام ١٩٤٠ بوضع مصنف واسع، أحيى العديد من الكتابات الاسلامية. بينما عمد العالم اللغوي الكبير مراد كامل إلى إحياء المجال القبطي والحبشي والسامي بجدارة.

(١٨) يشير بيرك إلى ذلك بإسهاب إشارة نقدية في كتابه «**المغرب بين الحربين**» - منشورات لوسوي، باريس، ١٩٦٢؛ وفي محاضراته في كوليج دي فرانس:

- **J. Berque. «le Magreb entre les deux geurres». Les Seuil. Paris. 1962.**

كذلك يشير إليه ج. ب. نيش، «**علاقة الدراسات الشرقية بالتجارة والفن والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**»

- J. P. Naich. «The connection of oriental studies with commerce. Art and Literature during the XVIII th and XIX th Centuries», Journ, March. Eg. and or. soc.,XV 1930, 33-39.

انظر أيضاً: ج شسنو «**التأريخ الفرنسي وتطور فيتنام المستعمرة**» - لندن ١٩٦١، (ص ٢٣٥ - ٢٤٤).

- J. Chesneaux, «French Historiography and the evolution of colonial Vietnam», in D.G.E. Hall, Historical writing on the peoples of Asia - Historians, of South-East Asia: Oxford-Londres, 1961. 235-244.

(١٩) انظر: م. خالدي وع. فروخ: «**التبشير والاستعمار في البلدان العربية**»، **صيدا - بيروت ١٩٥٣**.

(٢٠) حول هذه المقولة، انظر: ر. مكاريوس، «**الشباب المثقف في مصر غداة الحرب العالمية الثانية**»؛ باريس - لاهاي، ١٩٦٠.

- **R. Makarius. «La jeunesse intellectuelle d'Egypte au Lendemain de la deuxieme guerre mondiale»; Paris - La Haye. 1960.**

وانظر مقالنا «**المشكلة الاستعمارية من منظار العالم الافرو أسيوي**»:

- **«La Vision du problème colonial par le monde Afro - Asiatique» in notre «dialectique sociale». Paris. le Seuil. 2. (63 - 77).**

(٢١) لم يقصّر جاك بيرك، صديق النهضة العربية والوسيط بين ثقافتينا في - إزجاء التقدير لعدد من مثقفينا، وأنا بالذات أشكره، على تنويهه مراراً، بأعمالنا - لا سيما محمود العالم وأنا، فضلاً عن كتّاب القصص والروايات من المدرسة الواقعية المصرية - وذلك أثناء محاضراته في

كوليج دي فرانس، وفي مقاله «**القلق العربي في الازمنة الحديثة**» (مجلة الدراسات الاسلامية، مجلد ٢٦، ١٩٥٨، عدد ١، ص ٨٧ - ١٠٧)، وفي كتابه «العرب...» (ص ١٠٢)، ... إلخ.

- J. Berque. «L'inquiétude arabe des temps modernes» (Revue des études islamiques. XXVI. 1958. No. I. 87 - 107).

(٢٢) رغم ذلك، فإن ارنست رينان هو الذي نظر في فرنسا لمسألة التمييز بين السامية والآرية، زاعماً أن شعوب الفريق الأول، يظلون أدنى من شعوب الفريق الثاني على كافة الأصعدة (انظر: «**التاريخ العام والستام المقارن بين اللغات السامية**»، القسم الأول - باريس ١٨٥٥)

- E. Renan. «Histoire générale et systéme comparée des langues sémitiques». 1ère partie. Paris. 1855.)

ويستلهم د. كيمسون آراءه من هذا الكتاب في مؤلفه «**مرض الاسلام ووسائل القضاء عليه**»، باريس ١٨٩٧.

- D. Kimson. «Pathologie de l'Islam et moyens de le detruire». Paris 1897.

إن هذه النظرية ما فتئت تخضع للنقد منذ ذلك الحين، وتتهافت أمام انتقادات المفكرين والعلماء في العالم العربي.

(٢٣) (ص ١٠ - ١١). علماً بأن التحليل النقدي لهذا الكتاب ليس اليوم من اهتماماتنا.

(٢٣مكرّر) ترجم الدكتور علي سعد كتاب «جاك بيرك» هذا إلى العربية، ونشرته «مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني - بيروت». والكتاب نموذج فصيح للترجمة التي تشوّه فكر المؤلف ووعي القارىء. في هذه الفقرة اليسيرة الشأن التي أعدنا ترجمتها هنا، لا أقلّ من خمسة أخطاء نافرة: السبب الذي يحدو بالباحث إلى **الامتناع** عن الإدلاء بنظريته، صار في الترجمة سبباً **يحمله على الإدلاء** بها. ومساهمته النظرية التي من شأنها أن تعزز عفوية العرب، انقلبت في الترجمة إلى «مساهمة تكبر (هي نفسها) مع العفوية التي يستعيدها العرب». وفيما يتحدث المؤلف عن «انتقادات من الداخل» قد تثيرها مساهمته، يتحدث المترجم عن «انفعال النقد من داخل». وإذا قال المؤلف إنه يظل قادراً «على الانسحاب» في حال فشل مساهمته، يقول المترجم إنه «ينعم بأفضلية الابتعاد». هذا، فضلاً عن الالتباس الناشىء عن ترجمة «ستام» بـ «نظام»، لما يوحي به «النظام الخارجي» في سياق النص بأن المعنيّ هو النظام السياسي. ويضرب الكتاب رقماً قياسياً بأخطائه اللغوية والمطبعية، فلا يقل عدد صفحات جداول «الخطأ والصواب» فيه عن (١٥) صفحة. [المترجم].

(٢٤) «**المغرب بين الحربين**» - باريس، لوسوي، ١٩٦٢، (ص ٨).

(٢٥) «آفاق..» [مرجع سابق]، (ص ٢٣٧).

(٢٦) يجد القارىء عرضاً للنتائج النظرية في «**التعبير والدلالة في الحياة العربية**» - مجلة لوم (الانسان)، ١، ١٩٦١، عدد ١، (ص ٥٠ - ٦٧).

- «Expression et signification dans la vie arabe». L'Homme. 1. 1961. No. 1. P. 50 - 67.

(٢٧) «والتقرير المعتمد ما بين فروع لجنة الاستقصاء حول الدراسات الشرقية والسلافية والاوروبية الشرقية والافريقية»، لندن، ١٩٤٧

- Report of the Interdepartemental Commission of Enquiry on oriental, Slavonic, East Europeen and African Studies». Londres, H.M.S.O., 1947.

انظر تعليق أ. اربري، [المرجع المذكور]، (ص ٢٤٠ - ٢٤٩). تحليل وجردة بالخلاصات في تقرير هايتر، (ص ٦ - ٤٠).

(٢٨) تقرير هايتر، (ص ٤٥ - ٥٢).

(٢٩) المرجع نفسه... (ص ٥٣ - ٦٣)، يشير الجنرال ب. روندو، في دراسته «**الولايات المتحدة أمام الشرق الراهن**»، أوريان، ١٩٥٧، عدد ٢، (١٩ - ٢٢). وعدد ٣، (٣١ - ٨٠).

- P. Rondot, «Les Etats-Unis devant l'Orient d'aujourd'huit». Orient, 1957 No.2, 19-52. No.3, 31-80.

إلى دور المؤسسات الخيرية ومدرسة لغات ومناطق الشرق الأدنى لدى السفارة الأميركية في بيروت. ولدى الجامعتين الأميركيتين في بيروت والقاهرة (ونلاحظ أن هذه الأخيرة هي المؤسسة التعليمية العليا الأجنبية الوحيدة، المرخص لها للعمل في الجمهورية العربية

المتحدة). أمّا الحيثيات التي تقدمت بها جامعة ميتشيغان (آن اربور) لتوسيع برنامج دراستها حول الشرق الحديث، فهي التالية: « ١ - تعريف الشرق الأدنى لأوسع عدد ممكن من الأميركيين. ٢ - تشجيع الفكرة القائلة بأن للولايات المتحدة مصلحة حيوية في نمو هذه المنطقة حالياً ولاحقاً. ٣ - تكوين فريق عمل من الأميركيين الخبيرين في شؤون الشرق الأدنى ». غير أن حكم المؤلف على العمل الذي تمّ إنجازه متحفظ كل التحفظ. انظر: ر. بايلي وندسور « **الدراسات العربية والاسلامية في الولايات المتحدة** »، ميدل ايست فوروم، عدد ٣١، حزيران ١٩٥٦، (١٩ - ٢٢):

- R. Bayly Windsor, «Arabic and Islamic studies in the U.S.» Middle East Forum. No.31, Juin 1956, 19-22.

(٣٠) « **شرح التاريخ الاسلامي** ». دفاتر التاريخ العالمي، المجلد ١، ١٩٥٣، (٣٩ - ٦٢):

- «An Interpretation of Islamic History». Cahier d'histoire mondiale. 1. 1953. 39 - 62.

(٣١) راجع: « **من أجل دراسة المجتمعات الشرقية المعاصرة** » - مجمع دراسة السوسيولوجيا الاسلامية مجلة أكت، ١١ - ١٤ ايلول ١٩٦١، بروكسل، ١٩٦٢:

- «Pour l'étude des sociétés orientales Contemporaines». Colloque sur la sociologie musulmane - Actes. 11-14 sept. 1961. Bruxelles 1962.

« إن في اجتماعنا هنا للكلام على المجتمعات الشرقية في غياب زملائنا الشرقيين مفارقة (...) لا بد من التأمل فيها، إذ إن تفسيرها يقودنا على ما أعتقد إلى ما يتخطّى الظروف السياسية ليفضي بنا إلى إعادة نظر بمناهج فرعنا، بل ربما أيضاً بموضوعه » (ص ٨٥)، « إن غياب زملائنا الشرقيين عن مجمعنا هذا أمر مؤسف، لا يتعلّق كما يعتقد البعض بأسباب سياسية، بل يتعلّق بضيق عميق مرتبط بطبيعة المجتمع الذي ندرسه بالذات، من حيث علاقاته بمجتمعنا »، غير « أننا لا نتحمل وزراً في كوننا على نحو ما ذكرت » (ص ٤٥٧).

(٣٢) « **آراء وشطحات عنا وعن تاريخنا** » - الاهرام، ٢١ كانون الاول ١٩٦٢.

(٣٣) تنبغي الإشارة بشكل خاص إلى: « **مشكلة التبادلات الثقافية** » دراسات ليفي بروفنسال..

- «Le Problème des échanges culturels». Etudes Levi - Provençal.. 1. 141 - 151.

الذي يلخص أطروحات الأجزاء المنشورة من قبل المؤلف، لا سيما « **الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية** » - شيكاغو، ١٩٥٥:

- «Unity and Variety In Moslem Civilisation». Chicago. 1955

وبالاشتراك مع و. هارتنر:

- W. Hartner. «Klassizismus und kulturverfall» Frankfurt. 1960. «An analysis of islamic civilisation and cultural anthropology», in Actes coll., Bruxells, 21-71.

(٣٤) في الصفحة التي يحتج المؤلف فيها بقوله: « من المؤسف أن تكون الفوضى في استعمال التعابير أمراً شديد الواقعية، وأن الهروب من الوقائع والالتجاء الى الثرثرة الكلامية أمر شائع..» - ويمكن الاشارة الى الأخطاء التالية: ان استبدال تعبير « الحياد الايجابي » (Neutralisme positif) بتعبير « عدم الانحياز » (Non-engagement) ابتداء من عام ١٩٥٩ لم يحصل بناء على أن التعبير الأول « غير موفق » والثاني « أقرب الى التوفيق »، بل بناء على التوجه الجديد الذي طرأ على السياسة المصرية بعد مؤتمر باندونغ وابان فترة القمع عام ١٩٥٩ (انظر كتابنا « مصر...»، ص ٢١٩ - ٢٤٢)، ثم ان كلمة Cadres التي تترجم بـ « اطارات » في افريقيا الشمالية، لا يعبر عنها بـ « ملاك » في بلدان الشرق بل بما هو أبسط من ذلك، أي بـ « كادر »، أما structure فيقال لها في المصطلحات الفلسفية (تركيب) ولا يقال أبداً (هيكل) أو (جهاز) أو (نظام). ويندهش المرء حين يعلم ان كلام السيد عبد الله ابراهيم، في ٦ نيسان ١٩٥٩، هو الذي « يشق الطريق أمام لغة عربية حديثة تعبر الكلمات فيها عن الواقع » (وقبل؟) فـ (نقابات) مقابل Syndicats مستعملة منذ ١٩٠٨ في القاهرة - و(الجهاز الاساسي) مقابل Infrastructure هو في مصر (التركيب الأساسي) في حين أن (التركيب العلوي) تستعمل مقابل

Superstructure وذلك منذ ١٩٤٠ - ١٩٤٥ في أوساط المثقفين الماركسيين في الشرق منذ انخراطهم بمعركة التحرر والبناء القومي (العربية الحديثة)، باريس، ١٩٦٠ ص ٣٦٠.

- L'Arabe Moderne, Paris, 1960, p.360.

انظر أيضاً: مكسيم رودنسون، في «**دفاتر الشرق المعاصر**»، عدد ٥٠، ١٩٦٢.

- M. Rodinson. «Cahier de l'Orient Contemporain». No - 50. 1962.

(٣٥) يقول ج. بيرك: «إن هذه البلدان التي تتطلع إلى صنع التاريخ، ما زالت تفتقد حالياً لكراسي التاريخ الحديث في جامعاتها» (**«حوار...»**، ص ١٥٠٨). ينبغي أن نشير إلى الكتابات التي تناولت التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة القاهرة منذ جيلين، وكذلك في دمشق وبغداد والاسكندرية، في عدد واحد من مجلة «محاضر الجمعية الملكية للدراسات التاريخية» (القاهرة، ١، ١٩٥١، نشر عام ١٩٥٢):

«Proceedings of royal society of historical studies»

هناك (٧٧) صفحة من أصل (١٩٤) مخصصة للتاريخ المعاصر (انظر مقالي م. م. صفوت والشال). وهناك كراسي للتاريخ الحديث والمعاصر في كليات الآداب والعلوم السياسية بشكل خاص، بالطبع لا نشير هنا إلاّ إلى نماذج وعينات على سبيل العد لا على سبيل الحصر. انظر: نقد التاريخ العربي المعاصر عند أ. ج. شيجن، «**التعامل مع التاريخ من قبل الكتّاب العرب الحديثين**» - ميدل إيست جورنال، ١٤، ١٩٦٠، ٤، (٣٧٢ - ٣٩٦):

- A. G. Chejne. «The Use of history by modern Arab writers».

- Middle est journ. XIV. 1960, 4; 382 - 396.

ولنذكر أيضاً أن هناك جهداً كبيراً قد بذل في البلدان الاوروبية التي لم تنخرط تماماً في الاستعمار التقليدي: حول المانيا، انظر:

– L. Rathmann. «Zur Widerspiegelung anti imperialistichen Befreigungsbewegung des arabischen Völker in der bürgerlichen deutscen Historiographie»- Zeitschrift Geschichtswissenschaft, Berlin, X, 1962, No.3, 548-574.

وحول اسبانيا، انظر: ف. كانتيرا بورغوس، «**الدراسات الشرقية في اسبانيا الحالية**».

- F. Cantera Burgos. «Los estudios orientales en la Espana actual». Oriente Moderno. XXXV. 1955. No. 1; 336 - 247.

(٣٦) «**آفاق الاستشراق...**» ٢١٨ - ٢٣٢. نجد نفس الأطروحة في مجمع بروكسل: «على السوسيولوجيا الاستشراقية أن تنخرط في المجتمعات الشرقية، لا عن طريق المعرفة التي كانت ترتبط في ما مضى بالتوسع الاستعماري، بل عن طريق المشاركة في التحليل، أي عن طريق البناء من الداخل.» (**أكت...** ٤٥٨، ٤٥٩).

- هـ. كروز - البشوزن، «**الدراسات الاسلامية في المانيا ما بعد الحرب**» - مجلة الثقافة الاسلامية، مجلد ٣٦، ١٩٥٢ - عدد ٢، (٥١ - ٥٦).

- H. Kruse - Elbeshausen. «Islamic studies in post war Germany» Islamic culture. XXXVI. 1952. No. 2. 51 - 56.

- في اسبانيا، انظر: ف، كانتيرا بورغوس، [المرجع المشار اليه أعلاه]،

- في بلجيكا: انظر ج. ريكمانز، «الاستشراق في بلجيكا»: - G. Ryckmans. «L'orientalisme en belgique». Revue gen. belg. 1947. No. 23. 724 - 738.

- في ايطاليا، انظر: ا. روسي، «**الدراسات حول الشرق الأدنى في ايطاليا**»:

- E. Rossi. «Near Eastern studies in Italy». Middle Eastern Affairs. VII. 1957. No. 2. 27 - 60.

ـ في فنلندا، انظر: ب، آلتو، «**الدراسات الشرقية في فنلندا**»:

- P. Aalto. «les études orientales en Finlande». Archiv orientalny. 1951. No. 19. 79 - 84. ـ، و أ. أبيل، «**مقاربات نقدية لدراسة سوسيولوجية حول العالم الاسلامي المعاصر**»:

– A.Abel. «Approches critiques d'une étude sociologique du monde musulman contemporain». Etudes. Bruxelles. 1. 1962. No. 1-2; 3-16.

(٣٧) «**الاسلام والتاريخ الحديث**»، پرنستون، ١٩٦٠، الترجمة الفرنسية، ١٩٦٢، ١٣.

- «Islam and Modern History». Princeton. 1962. 13 (trad. Française)

حيث نقرأ وفقاً للذهنية نفسها: «أن عدداً كبيراً من المسيحيين، بالإضافة الى المؤلف، يسعدهم جداً أن يقوم أحد الكتاب المسلمين بدراسة مماثلة عن المسيحية المعاصرة». يزخر هذا الكتاب بالتحليلات الشيّقة ويقدم نظرة إجمالية على الواقع الاسلامي في آسيا وأفريقيا.

(٣٨) تصل موازنة معهد جامعي واحد في الولايات المتحدة ـ «نير استرن سنتر» التابع لجامعة كاليفورنيا في لوس انجلوس ـ إلى ستة أضعاف الموازنة السنوية لبلد اوروبي صغير...

(٣٩) يحتل العديد من أساتذة اللغة العربية وظائف تعليمية في مختلف الجامعات الأميركية، بينما ينصرف آخرون إلى الإشراف على عدد من الأقسام المختصة بالبحوث.

(٤٠) إن تحليل «المقالات والدراسات» الواردة في «جدول سنوات ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢» من المجلة المحدثة الجديدة «**لوريان**» L'Orient، يحفل حول هذه النقطة بالكثير من المعاني: أربعة كتاب محليين من أصل زهاء خمسة وسبعين كاتباً. صحيح، أن قسماً كبيراً من المجلة قد خصص لتقديم نصوص حول الأدب والفكر والدين والسياسة في بلادنا. لكن هذه المواد تظل مواد يشتغل عليها المحلّل الذي يحتفظ لنفسه، والحالة هذه، بموقع المشرف.

(٤١) «**مشكلات تاريخ الشرق الاوسط**»، واشنطن، ١٩٥٦، في «دراسات حول حضارة الاسلام»، لندن، ١٩٦٢، ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

- «Problems of Middle Eastern History». Washington. 1956. in «Studies on the civilization of Islam». Londres. 1962. 342 - 343.، والمؤلف لا يريد أن يأخذ بالاعتبار أعمال البحوث التاريخية والسوسيولوجية التي دارت حول الشرق الاوسط (٣٣٩ ـ ٣٤٠)، اللّهم إلاّ «**مقدمة لتاريخ التربية في مصر الحديثة**» لمؤلفه ج. هايوارث ـ دون:

- J. Heyworth - Dunne. «Introduction to the History of education in Modern Egypt». Londres. 1938.

أما الكتاب الهام، الذي وضعه مونتغمري وات، بعنوان «**الاسلام وتوحيد المجتمع**» ـ لندن، ١٩٦١.

- W.Montgamry Watt. «Islam and the integration of society» - London 1961.

وهو مبنيٌّ على نظريات ك. مانهايم، فهو لا يذكر كلمة عن الأعمال العربية الجديدة. وأما م. رودنسون، فهو يشير إلى أهمها في مقاله «**جردة بالدراسات المحمدية**» ـ المجلة التاريخية، عدد كانون الثاني ـ آذار ١٩٦٣، (١٦٩ ـ ٢٢٠).

- M. Rodinson. «Bilan des études mohammadiennes». Revue historique. Fasc. 465. Jan.-Mars 1963. 169 - 220.

(٤٢) على الصعيد «الجامعي»، انظر كتابين: لـ ج. استروي الذي ينظّر حول «الانسان الاسلامي (اومو اسلاميكوس) انطلاقاً من جهل مطبق باللغة والثقافة العربيتين: «**البنية الاقتصادية والحضارة ـ مصر وقدر الاسلام الاقتصادي**» (اطروحة دكتوراه، ١٩٦٠)؛ ثم «**الاسلام تجاه النمو الاقتصادي**» ـ باريس، ١٩٦١.

- J. Austruy. «structure économique et civilisation - L'Egypte et le destin économique de l'Islam» (th. dr., 1960). «L'Islam face au developpement économique». paris. 1961.

على الجانب الصحافي، يطلق ج. **وس. لاكوتور** حكمها، من حيث الثقافة والدين: «هل يُعذر المؤلف إذا كان قد تناول مثل هذا الموضوع رغم عدم إلمامه بالعربية؟»، ثم يشير إلى بعض الهفوات بالقول: «فنحن لا نقصد هنا إلاّ الثقافة الوطنية»... : «**مصر في حراك**»، الطبعة الثانية ـ باريس، ١٩٦٢، (٣٠٦ ـ ٣٤٣).

J. et S. Lacouture. «L'Egypte en mouvement». 2e éd. - Paris. 1962. 306 - 343.

رغم ذلك، فالكتاب يحفل ببعض اللقطات الشيّقة. في نفس الوقت، نشر س. لاكوتور كتاباً بعنوان «**مصر**» ضمن مجموعة «الكوكب الصغير» (بوتيت بلانيت) ـ باريس، ١٩٦٢؛ حيث يحكم على الأدب والفكر والفن... إلخ. بلهجة قاطعة، تولي مكاناً واسعاً لكتاب أجانب يعيشون في مصر، لكنهم مجهولون تماماً في الجمهور، ويستطيع المرء بالطبع أن يُكثر من الأمثلة المشابهة... «خذوا فقط مسألة الآداب. إن واحداً من غير الاوروبيين، إذا ما تواجد في قاعة المطالعة الكبرى في المتحف البريطاني، أو في المكتبة الوطنية (الفرنسية)، وتساءل عن قيمة كل هذه الكتلة الضخمة من الكتب، لا بد أن يُعتبر بمثابة البربري المخيف. لكن في العالم آداباً لا تقل ضخامة عن آدابنا، كالأدب الصيني مثلاً، لا يفقه الاوروبي العادي منها كلمة واحدة حتى لو كان مثقفاً. أليس هذا الاوروبي بدوره بربرياً؟» (ج. نيدهام، **الحوار**...، ٣، رقم ١). هذا، ويطلق **برمون** حكمه، في دراسة سريعة حول «**وسائل الاتصال الجماهيري في البلدان الآخذة بالنمو**» (في مجلة «كومينيكاسيون»، ٢، ١٩٦٢، ٥٧ ـ ٦٧)

- C. Bermond. «les communications de masse dans les pays en voie de dévéloppement». communications. II. 1962. 57 - 67، وذلك انطلاقاً من تقارير وضعها خبراء اوروبيون، دون إشارة واحدة إلى أعمال الكتاب المحليين، مهما كان أمرهم ومن أيّ بلد كانوا.

(٤٣) يعطي كتاب «**الاسلام والرأسمالية**» (باريس، لوسوي، ١٩٦٦)، فكرة أولى عن هذا العمل:

- M. Rodinson. «Islam et capitalisme». Paris. le seuil. 1966.

(٤٤) «عندما عزمت في ذلك الحين (١٩٥٠)، على توجيه أبحاثي نحو تاريخ البروليتاريا الصينية والحركة العمالية الصينية، غداة ثورة اكتوبر والحرب العالمية الأولى، كانت المسألة بالدرجة الأولى، بالنسبة لي، نوعاً من الرهان الباسكالي الذي يعبّر عن قناعة مفادها أنه من الممكن والواجب، في نفس الوقت، أن تصبح دراسة تاريخ الصين المعاصر فرعاً من فروع المعرفة يتصف فعلاً بالصفة العلمية.» «**أبحاث حول تاريخ الحركة العمالية الصينية**» ـ مجلة الحركة الاجتماعية، عدد ٤١، أكتوبر ١٩٦٢، (١ ـ ١٢).

- «Recherches sur l'histoire du mouvement ouvrier chinois». Mouvement Social. No41. octobre. 1962. 1 - 12.

إن اختيار موضوعة البحث المركزية ـ «الحركة العمالية» لا «الحركة القومية»، يتصل بمشكلة الماركسية الاوروبية.

(٤٥) يملك المؤلف مكتبة فريدة في بابها في العالم، تحتوي على كتب ووثائق ذات صلة بالعلم والتكنولوجيا، فضلاً عن شلّة من المساعدين، الذين يحيطون به في «معهد كونجفيل وكايوس» الذي يتولى الاشراف عليه، منهم: وانغ شينغ تنغ، لي جوي ـ دجن، هو بنغ يو، كينيث روبنسون، رزاو شين ـ شن.

المجلدات المنشورة (حتى عام ١٩٦٣): المجلد **الأول**: «مداخل توجيهية» كمبردج ـ لندن، ١٩٥٤. المجلد **الثاني**: «تاريخ التفكير العلمي» ١٩٥٦. المجلد **الثالث**: «الرياضيات وعلوم السماوات والأرض» ١٩٥٩. المجلد **الرابع**: «الفيزياء والتكنولوجيا الطبيعية»، ١٩٦٣.

-I. «Introductory orientation». Cambridge - Londres. 1954.

II «History of scientific thought». 1956.

III «Mathematics and the sciences of the heavens and the Earth». 1959.

IV «Physics and physical Technelogy-physics». 1963.

(٤٦) يشير و. ز. لاكور إلى دورية الاستشراق المركزية الجديدة في الاتحاد السوفياتي Sovetskoe Vostokuvdenie، التي صدرت في ابريل عام ١٩٥٥؛ وينوّه بالدور الحاسم الذي اضطلع به كل من ميكويان، وغافاروف (عضو أكاديمية العلوم واللجنة المركزية للحزب الشيوعي في آن واحد)، ومحي الدينوف وسلطانوف، وكلهم قادة من أصل غير اوروبي؛ ثم يشير إلى بعض المنشورات التي يعتبرها مهمة، لا سيما «ايران المعاصرة»، و «سورية المعاصرة»، وكتاب ليبيديف عن الأردن، ١٩٥٦، وكتاب كوتلوف عن الثورة العراقية عام ١٩٥٨، وكتاب بيلاييف «الامبريالية الاميركية في العربية السعودية» ١٩٥٧، وكتاب كاتافلين «العلاقات الزراعية في سورية» ١٩٥٧، ... إلخ. (**الاتحاد السوفياتي والشرق الأوسط**) لندن، ١٩٥٩، (١٦٨ - ١٨٦).

- «the soviet union and Middle East». londres. 1959. 168 - 186.

● أهم المنشورات التي تناولت الاستشراق الجديد في البلدان الاشتراكية، (حتى عام ١٩٦٢) هي:

م. برلمان، «**دراسة الشرق الاوسط الاسلامي في الاتحاد السوفياتي ١٩٤٠ ـ ١٩٤٦**»:

- M. Perlman. «The study of Islamic Middle East in the Soviet Union». report on Current Research. 1957. 17 - 26.

ـ ب. ج. غافوروف، «**المهام المباشرة للدراسات الشرقية السوفياتية**»:

- B. G. Gafurov. «Immédiate Tasks of Soviet Oriental studies». vestnik Akademit Nauk. 9. 1957.

- N. A. Mukhtidinov. «K Novym Uspekham sovets Kogo Vostok - vedeniia» Moscou. 1957.

ـ م. غوبوغلو، «**اربعون عاماً من الدراسات الشرقية في الاتحاد السوفياتي ١٩١٧ ـ ١٩٥٧**»

- M. Guboglu. «40 ans d'études orientales en URSS. 1917 - 1957». studia et acta orientalia. I. 1958. 281 - 316.، حيث يتحدث عن «انسحاق الطريقة التروتسكية لنمط الانتاج الآسيوي، عام ١٩٣٤» (٢٩٥).

- «La prima confernza pan sovietica degli orientalisti i. Tachkent. 4 - 11 Juin 1957». Or. Med. 38. Fevrier 1958. 202.

- W. Z. Laqueur. «The Shifting Line, in Soviet Orientalogy» Problems of communism. 5. 1956. 20 - 61:

- R. Lœwenthal. «Russian Materials on Islam and Islamic Institution. a Selective Bibliography». Der Islam. XXXIII, 1958. N0 1 - 2. 280 - 309: puis: «Russian Materials on Arab Countries. a Select. Bibl.». ibid. XXXIV. 1959. 174 - 187:

- «Dix ans d'études Orientales en Plogne». Rocz. Orj. 20. 1956. 7 - 14:

- D. Sinor. «Dix années d'orientalisme hongrois». Journal asiatique. 239. 1951. 211 - 237: Les Actes des journées scientifiques d'orientalisme, Praha - Dobris. 20 - 25 juin 1949:

- J. Ryckmans. «Les études orientales (islamiques) en Pologne». Studia et Acta Orientalia. II. 1959. 161 - 187:

- J. Kabrda. «Les Etudes orientales en Yougoslavie». Arch. Or. 25. 1957. 146 - 155:

- J. Blaskovic. «Les Buts. l'Organisation et l'Activité de l'école orientalistiques tchécoslovaque». studia et Acta Orientalia. II. 1959. 61 - 69:

- K.petracek. «Les Etudes arabes et islamiques et la sémitologie en Tchécoslovaquie». Arch. Or. 19. 1951. 89 - 107:

- J. Rypka. «L'Orientalisme en Tchécoslovaquie» Arch. Or. 19. 1951. 15 - 26:

- M. Guboglu; «Contributions roumaines aux études orientales». Arch. Or. 24. 1956. 459 - 475:

- D. Zbaritel. Die Orientalistik in der Tschechoslowakei. Prague. 1959. etc.

(٤٧) « **المسيحية والثقافات الآسيوية** »، مجلة لاهوت، المجلد ٦٥، ١٩٦٢، (١ - ٨).

- «Christianity and the Asian cultures». Theology. LXV. 1962. 1 - 8.

(٤٨) « لقد مضت قرون طويلة من التهيؤ، كنا نرى اوروبا خلالها وهي تستوعب التعاليم العربية والفكر الهندي والتكنولوجيا الصينية ». « إن أوروبا لا تهتم بالاختراعات التي مهدت لهذه الرحلات (الكشافة) وجعلتها ممكنة: البوصلة والدقّة الصينيّتي الأصل، فضلاً عن الصواري المتعددة ذات الأصل الهندي والأندونيسي. والشراع اللاتيني الذي يعود الفضل في إيجاده للبحارة المسلمين ». « إن المرء يسمع كلاماً كثيراً، يكاد يعني أن الاوروبيين كانوا قد اكتشفوا كل ما تبقّى من العلم. وهذه نظرة محدودة، ولا تصح أبداً في فترة ما قبل النهضة؛ فالاغريق في بكترياننا لم يكتشفوا الصينيين، بل العكس، فالصينيون (بشخص تشانغ تشين حوالى العام ١٢٥ ق. م.) هم الذين اكتشفوهم. بعد ذلك بقرنين، وصل كان ينغ حتى الخليج الفارسي، أي أنه توغّل باتجاه الغرب أكثر بكثير مما توغّله الرومان نحو الشرق. وفي أواخر عهد سلالة منغ، كان العلَم الصيني يخفق أينما كان في المحيط الهادىء وبحر الهند، من زنجبار إلى بورنيو، ومن بورنيو إلى كامشتكا ». « إن الفكرة التي تتردد في كثير من الأحيان، والتي تقول إن المعنى التاريخي السليم لم يتبلور إلاّ بفضل الحضارة الاوروبية وحدها، هي فكرة لا يمكن القبول بها على الإطلاق، بل الأولى أن يُقال إن الفضل في ذلك يعود إلى الحضارة الصينية التي يؤلف مجموع تواريخ ممالكها الأربعة والعشرين، منذ العام ٩٠ ق. م. جسماً من الأعمال التأريخية التي ليس لها مثيل في العالم (...) وحتى لو أصر المرء على أن يفهم « المعنى التاريخي » بمعنى « فلسفة التاريخ »، فإن مساهمات أوروبا لم تكن بهذا المعنى أيضاً في طليعة المساهمات، إذ إن ابن خلدون قد عاش قبل فيكو بثلاثة قرون »؛ « ولا يسع المرء (...) أن يقبل بالأطروحة، التي تقول إن الفكرة الهادفة إلى توحيد الجنس البشري في مجتمع واحد إنما انطلقت من اوروبا، فالمقولة الكونفوشيوسية (في حدود البحار الأربعة يتساوى جميع البشر في الأخوّة)، تعود في تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد. أمّا في الهند، فلم يكن « كابير » إلاّ حوتاً ضمن جوقة من الشعراء والانبياء الداعين إلى تضامن البشر فيما بينهم. « وبعض علماء أوروبا يعتبرون أن العلم والتكنولوجيا الحديثين، في اشعاعهما المظفر عبر بلدان العالم، قد روفقا بشكل متحجر، وبالتالي متقعّر، مستمد من الحضارة الاوروبية. إذ يلاحظ هؤلاء العلماء، ولا تخلو ملاحظتهم من بعض الأسى، أن سمات القيم الدينية الاوروبي قد واجه رفضاً من قبل جميع حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا؛ ذلك أن هؤلاء المفكرين يعتبرون أن المسيحية لا تنفصل عن ذهنية العلم الحديث. فقد شكّلت، إذا جاز القول، المناخ الفكري الذي ترعرعت ضمنه هذه الذهنية. فإذا وافق المرء على هذه النظريات، كان على قاب قوسين أو أدنى من التسليم بوجود تبشير بحملات صليبية جديدة ترمي إلى فرض الأفكار الدينية الاوروبية على الثقافات الأخرى. وقد تعمد جحافلها إلى رفع رايات الصليب، لكن الرأسمالية والامبريالية هما اللتان تستظلان، والحالة هذه، تحت هذه الراية. والحال، ما هي بالضبط تلك العناصر الفلسفية التي لا تنفصل عن العلم والتكنولوجيا؟ هذا ما لم يستطع أحد أن يحدّده حتى الآن »، (**الحوار...**). منذ ذلك الحين ـ عبّر الشعار البابوي الذي أطلقه يوحنا الثالث والعشرون: (السلام على الأرض Pacem in terris)، عن رغبة الكاثوليكية في وضع حد لهذا النمط من رؤية الأمور.

(٤٩) « كلمة أ. ميكويان في المؤتمر الدولي الخامس والعشرين للمستشرقين »

- Problemi vostokvedenea. 1950. No 5, 3 - 6.

إن الهدف (« المتجرد ») الذي يسعى إليه الاستشراق، هو « الذي يطرحه المهندس العسكري على نفسه، حين يدرس منشآت العدو الدفاعية والهجومية: إنه التدمير »، كما يقول غوغوبير في ترجمته لألفية ابن مالك، (ذكرها ل. ماسينيون، في « **أيام الثلاثاء في دار السلام** »، ١١، ١٩٥٨، ٥٩)... الخ.

(٥٠) - K. Mueller. «Der Ostblok und die Entwicklungslânder» Das parlament. 12 juillet 1961. 397 - 411.

(٥١) انظر العرض في « **مجمع حول أبحاث المعاهد الفرنسية للعلوم الانسانية في آسيا** »، الذي نظمته مؤسسة سنجر ـ بولينياك، ٢٣ ـ ٣١

اكتوبر ١٩٥٩، (باريس ١٩٦٠)، (٣٩ - ٤١):

- **Colloque sur les recherches des instituts Français de sciences humaines en Asie.** Organisé par la Fondation Singer - polignac 23 - 31 oct. 1959 (Paris. 1960). 34 - 41.

(٥٢) انتقدت الاطروحات الواردة في « الاستبداد الشرقي » نقداً عنيفاً، لا سيما من قبل إ. إ. ليش، « **المجتمع المياهي في سيلان** »:

- E. E. Leach. «**Hydraulic society in ceylon**». Past and présent. 1959. No 15. 2 - 29.

كما انتقدها ج. نيدهام « **ماضي الحاضر الصيني** »:

- J. Needham. «**The past of China's présent**». Centennial Review. IV. 1960. No 2. 164 - 165. ، فضلاً عن ج. شسنو « **الابحاث . . .** ».

- J. Chesneaux. «**La recherche...**». 12. No 5. ، وهناك محاضرة ألقاها العالم المجري ق. توكي، منذ فترة وجيزة « حول نمط الانتاج الآسيوي » انطلاقاً من نص ماركس الذي عنوانه:

— «Formen, der Vorkapitalististischen Produktion: Grundrisse der Politischen œkonomie-Rohentwurf». Berlin. 1953. ، وتفتتح هذه المحاضرة عهداً جديداً من البحث الماركسي حول هذه القضية، ما ليث أن عرف ازدهاراً كبيراً، نشرت محاضرة توكي في باريس عام ١٩٦٢:

- C.E.R.M. Paris. Juin 1962. 35 Pages.

(٥٣) ماركس - انجلز، « **الحرب الهندية الأولى من أجل الاستقلال** » - موسكو ١٩٦٠:

- Marx - Engels. «**The First Indian War of independance**» Moscou. 1960.36-37. ؛ والمسألة هنا، تختلف بالكلية عن مسألة « الأضرار المتبادلة » المبنية على النظرية المسمّاة « تبادل آفاق النظر » . . .

(٥٤) بعد أن كتبنا هذه الصفحات، تسنى لنا أن نتوسع بإسهاب في وجهة نظرنا حول الابحاث المجموعة هنا، وذلك في اطروحتنا الموضوعة عام ١٩٦٩، « **الايديولوجيا والنهضة القومية: مصر الحديثة** » - انتروبوس، باريس.:

- «**Ideologie et Renaissance Nationale: l'Egypte moderne**». - Anthropos. Paris.

(٥٥) نعتقد أن الأساس النظري للخلافات الصينية السوفياتية، يقوم على رفض القادة الصينيين رفضاً مبدئياً لكل محاولات تكريس « المحورية الاوروبية » في ميدان النظرية الماركسية والستراتيجية الثورية. كان جورج لوكاش قد كتب منذ العام ١٩٥٩: « إن هناك بلداناً كالهند، تسعى في مسيرتها نحو الحضارة الحديثة وفي جهدها من أجل تصفية بقايا القرون الوسطى لديها، إلى سلوك طريق يفرد مكاناً جزئياً، على الأقل، للاشتراكية. ومن الممكن جداً أن تجد السمات الأصلية لهذه التغيرات الاجتماعية تعبيراً لها، من خلال أشكال أدبية جديدة، لا يسعنا أن نردها إلى ترسيمات مجردة ».

- «**Die Gegenwartsbedeutung des kritischen Realismus**».1955. éd. à Hambourg. sub. «Wider denmiss-verstandenen Realismus». Tr. fr. par M. de Gandillac. Paris. 1960. 137.

(٥٦) ج. شسنو، « **الابحاث . . .** » (١١ - ١٦).

(٥٧) « **المؤتمر الواحد والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي ومهام الاستشراق** »:

- The 21 st Congress of the C.P.S.U. and the tasks of Orientalogy». Prob. Vostok. I. 1959. 18 - 25. ؛ انظر كذلك: م. مانكال، « **المؤتمر الواحد والعشرون للحزب والاستشراق السوفياتي** »

- «**the 21 st Congress party Congress and soviet Orientalogy**». Asian Studies. XIX. 1960. No 2, 18 - 25.

(٥٨) تشير انريكا كولوتي - بيتشل في « **الصين والهند ومرحلة الانتقال** » إلى نواحي التقارب الجغرافية والتاريخية، لدى الباحثين العرب

والمسلمين مع زملائهم الاوروبيين، في حين تتمزّق الهوة عندما يتعلق الأمر بالصين.

(Problemi del socialismo. VI. 1963. No 2. 193 - 213.) -، أما كتابها «**الثورة المتواصلة**»، فيشكّل إحدى المحاولات الواضحة التي قامت بها الماركسية الاوروبية لفهم الرؤية الصينية للتاريخ:

- E. Collotti - pischel. «La rivoluzione ininterrotto. Turin. 1962.

(٥٩) «**مجمع حول الأبحاث...**». [المرجع المذكور سابقاً في الهامش (٥١)] في عام ١٩٦٦، يضيف في خاتمة كتابه «**آسيا الشرقية في القرنين التاسع عشر والعشرين**»:

- «L'Asie orientale aux XIX e et XX e siècles». P.U.F. Paris. 1966.

«إن هذه الأصالة (التي يتمتع بها تاريخ آسيا الشرقية) لا تعني أن التاريخ العام والمقارن للمجتمعات البشرية، تاريخ ساقط؛ فتاريخ آسيا لا يدور في إناء مغلق، بل إن له وتيرته الخاصة، دون أن يكون تابعاً لوتيرة التاريخ الغربي على مستوى التفكير النظري. إن الانطلاق من دراسة آسيا المتحررة تاريخياً من اوروبا، مثلما هي تسعى للتحرّر منها تاريخياً، شرط من أجل تأسيس الوحدة العميقة للتاريخ البشري على مستوى أرفع مما كان عليه في الماضي وبصورة أمتن ولا شك» (ص ٣٤٠).

(٦٠) انظر: هذا الاخير، في محاضراته الهامة في السوربون، ولا سيما «**الشرق الفلسفي: عموميات وتحديدات، مبشرون وفلاسفة، متخصصون بالصين ومتخوفون منها**»:

- «L'Orient philosophique: généralites. définitions: missionnaires et philosophes: sinophiles et sinophobes et (ex. ronéotypés. Paris, 1960 - 1962).

(٦١) فونغ يو لان، «**تاريخ الفلسفة الصينية**» - بكين، ١٩٣٧:

- Fung Yeou Lan. «History of chinese Philosophy», Pekin 1937. Princeton. 2 vol. (1952 - 1953). -، وانظر أيضاً: ج. نيدهام، «**الحضارة والعلم...**» المجلد الثاني.

(٦٢) جُدِّد منهج تاريخ الفلسفة الاسلامية، بناء على سعي من المدير الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٢ - ١٩٤٧)، خاصة في كتابه «**تمهيد إلى تاريخ الفلسفة الاسلامية**» - القاهرة. ١٩٤٤. انظر: **أعمال**: عبد الرحمن بدوي، عباس العقاد، عثمان أمين، محمد يوسف موسى، ابراهيم مدكور، اسماعيل مظهر، حسن صعب...، إلخ؛ وانظر أيضاً: «**الفكر الفلسفي في مئة عام**» (الجامعة الاميركية، بيروت، ١٩٦٢)، خاصة (ص ٩ - ٧٠ و ١٠٢ - ٢٤١ و ٢٩٨ - ٣٩٢)؛

وانظر: «**كيف انتقل العلم الاغريقي إلى العرب**» بقلم دي لاسي أوليري - لندن ١٩٥١، (المجلة، المجلد الأول، ١٩٥٧، عدد ٤، ١٢٥ - ١٢٧):

- De lacy o'Leary. «How Greek science passed to the Arabs» Londres. 1951. Al - Magallah. I. 1957. No 4. 125 - 127.)

(٦٣) بول سويزي، «**الحاضر بوصفه تاريخاً**» - نيويورك ١٩٥٣:

- Paul sweesy. «the present as History»- New York. 1953.

(٦٤) انظر: أعمال المؤتمر

- «Problem des Newkolonialismus und die politik der beiden deutschen Staaten gegnüber dem nationalem Befreiungskamp der Völker». 5 - 8 Avril 1961. Leipzig. 2 vol.

والنص المذكور مقتطف من مقالة م. مانكال.

(٦٥) يضع ج. شسنو (في «**الابحاث...**»)، الجدول التقريبي التالي للمؤتمر العشرين للمستشرقين - باريس، ١٩٤٨؛ وذلك في المؤتمر الخامس والعشرين الذي انعقد في موسكو عام ١٩٦٠:

عدد المداخلات	الاجمالي	الموضوعات الحديثة	كتّاب من آسيا وافريقيا
باريس	٢٩٩	٣٣	٣٧
اسطنبول	١٨٥	١٧	٥١
كمبردج	٤٠٤	٥٥	٦٢
ميونيخ	٤٣٨	٨٠	٨٦
موسكو	٧٦٧	٢٨٧	١٩٧

(٦٦) **« ماضي . . »**: - «the Past..». centennial review. IV. 1960. No 3, 308.

(٦٧) إن « مجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي » بإشراف كلود كاهن (منذ ١٩٥٧ في ليدن)، تهتم بشكل أساسي بالدوريات الكلاسيكية . في أهم المجلات الدورية التاريخية الماركسية أو المتمركسة في أوروبا الغربية - **« الماضي والحاضر »** (اوكسفورد)، « أبحاث دولية » (باريس)، **« دراسات تاريخية »** (روما) - ما زال الشرق المعاصر يحتل موقعاً ثانوياً للغاية . أمّا الماركسيون الانكليز، (لا سيما منشورات لورانس وويشارت)، فيولونها مزيداً من الانتباه، خاصة: و. بالم دوت، **« أزمة بريطانيا والامبراطورية الانكليزية »** - لندن ١٩٥٧ .

- R. Palme Dutt. «The Crisis of Britain and the British Empire» - Londres. 1957. problems of contemporary History. 1963. ، وأعمال ج . وورديز حول افريقيا . . . إلخ .

(٦٨) مر ذكرها مراراً في الملاحظات السابقة .

(٦٩) حول هذا المعهد، انظر: Probl. Vostokv. 1960 No 6. 221.

(٧٠) « مجمع حول الابحاث . . . »

(٧١) هـ . باسين **« ثقافة الصين الدبلوماسية »** - لندن، ١٩٦٢، (١٠٧ - ١١٥) .

- H. Passin. China's Cultural diplomacy» - Londres. 1962. 107 - 115.

(٧٢) ثمة كتاب هام عن الاستشراق العلمي الراهن: **« الاسلام وحضارته »** لأندريه ميكيل، أربان كولان، ١٩٦٨ . لا سيما القسم الرابع منه، (٣١٥ - ٤٠١)، يتجه في هذا الاتجاه . بينما يستمر دومينيك وجانسين سورديل في السير على خطى التراث ما قبل السوسيولوجي:

- A. Miquel. «L'Islam et sa civilisation». A. Colin. 1968.

- D. et J. Sourdel. «La civilisation de l'Islam classique». Arthaud. 1968.

(٧٣) في الولايات المتحدة، من المفيد أن نشير إلى أن « التشديد الرئيسي قد تم على ست لغات « حَرِجَة »، هي: العربية والصينية والهندية واليابانية والبرتغالية والروسية؛ بينما احتُفظ بثمانية عشرة لغة أخرى، من صقلبية وآسيوية، ريثما تتلقّى الدعم المناسب »، على حد قول تقرير هايتر (ص ٥٥)؛ الذي يصيغ نتائجه الخاصة بالنسبة لبريطانيا (ص ٩٢ - ٩٩) .